عبد السلام زين العابدين



منهج الإمام الخميني (قده) في التفسير

دار الهادي


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

منهج الامام الخميني في التفسير

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

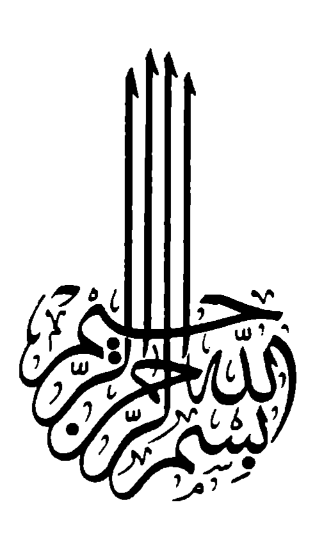
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضايا اسلامية معاصرة

منهج الامام الخميني في التفسير

عبدالسلام زين العابدين




بسم الله الرحمن الرحیم

مقدمة المحرر

طالما حجب وهج المواقف السياسية الحازمة لقيادات الثورات الأبعاد الأخرى في شخصياتهم، فتظل غير واحدة من مواهبهم مستترة وراء الموهبة السياسية، ومجهولة لدى الكثيرين من الناس، ويتجلى هذا الأمر بوضوح بالنسبة للقيادات الاستثنائية، التي تقود الأمة في أحلك الظروف، وتعمل على تعبئتها، وتجنيد طاقاتها، وتحرير فاعليتها الكامنة، وتوصلها إلى أعتاب مرحلة جديدة في مسارها التاريخي، فإن الوجه السياسي لهذه الشخصية القائدة يطغى على ما سواه، فيستقطب ذلك اهتمام أبناء الأمة، ويخطف أبصارهم، وبالتالي يتحول إلى قناع تختفي خلفه سمات العبقرية المتنوعة لهذه الشخصية، وما تنطوي عليه من عمق وثراء روحي، ومؤهلات متميزة، مضافاً إلى عبقريتها السياسية.

وتجسد شخصية الإمام الخميني أبرز مصداق لذلك، لأن شخصية الإمام من ألمع الشخصيات الثورية والسياسية، واشدها توهجاً في هذا العصر، فمواقفها الثورية وصلابتها، وإصرارها، وثباتها، وقدرتها الهائلة في تعبئة الأمة، وتحريضها بوجه الأعداء، وقيادتها نحو الهدف، كل ذلك ساهم بتغييب ما تختزن هذه الشخصية من أبعاد علمية وروحية باهرة، تلك الأبعاد التي تمثل رصيداً عميقاً تنبثق عنه رؤاها وسلوكها السياسي. فلم ينتبه معظم الخبراء بالشأن السياسي فضلاً عن عامة الناس إلى أن الإمام الخميني كان فقيها، فيلسوفاً، مفسراً، عارفاً، ذا تجربة روحية مفعمة بالوجد الإلهي، قبل أن يكون ثائراً وقائداً ظافراً. بل إن انتصاراته ومكاسبه السياسية ما كان لها أن تنجز لولا أن تستند إلى هذا المخزون الروحي والعلمي الهائل.

كمـــا كـــان الإمـــام الخميـــني رائداً في إقحام الفقه في هموم المواطن السياسية والاجتماعية، والارتقاء بوظيفته إلى دوائر لم يطرقها من قبل، والاستناد إليه كسلاح في مقاومة الاستعمار، فلعلها المرة الأولى التي تنطلق من أعلى منبر للدرس الشرعي في الحـــوزة العـــلمية ــ وهو منبر درس الخارج ــ هتافات مقارعة الاستعمار، وتشريح ماهيـــته، وتشخيص مساربه، والكشف عن نزعاته العدوانية وسلوكه الوحشي إزاء المجـــتمعات المستضـــعفة. ومـــن على هذا المنبر قدَّمَ الإمام الخميني الصياغة النظرية لأطروحـــته في الحكومـــة الإسلامية ببيان ميسر يقترب من وعي الجماهير، ولا ينوء بحمولة المصطلحات العلمية التي لا يدركها غير المختص بالدراسات الشرعية، وعبرت هـــذه الأطـــروحة عن بديل علمي وعملي عن بعض الأفكار التخديرية، التي تدعو للاستســـلام، وتجرِّد أية محاولة لإقامة حكومة إسلامية في عصر الغيبة من المشروعية. فانخرط الفقه في آلام الأمة وأضحى وقوداً ثورياً في مقارعتها للاستعمار، ومناهضتها للـــتحجر، واســـتلهم مـــنه الثوار روح التضحية والفداء، بعد أن استحالت أحكامه السياسية إلى شعارات ومحددات للمسيرة في المعارك المصيرية. وبذلك خرج الفقه من مداراتـــه التقـــليدية الـــتي لـــبث فيها عدة قرون بعيداً عما تجابهه الأمة من تحديات وصـــراعات ضد خصومها التاريخيين. كذلك استطاع الإمام الخميني عبر حديثه بلغة الجمـــاهير وحكاياها أن يحرر الخطاب الإسلامي من اسر النخبة، وأن يتصل مباشرة بوجـــدان الـــناس، ممـــا أتاح له أن يحوِّل الإسلام إلى حالة شعبية، تعبر عن أمل عام مشترك للمواطنين بأسرهم، وتتفاعل مع تعاليمه وأهدافه طبقات المجتمع كافة.

ولم يقتصـــر الإمام الخميني على افتتاح حقول جديدة تتحرك التجربة الفقهية من خلالهـــا في مسالك متروكة من قبل، بل عمل أيضاً على دمج الفقه بالأخلاق، لأنه حصل انفصال تاريخي بين الفقه والأخلاق، فجرى البحث الفقهي في مسار ابتعد فيه بالـــتدريج عـــن الـــبواعث والغايات، فأنتجت أحكاماً مفرغة من المضمون القيمي للإســـلام أحيانـــاً، وباتت أشبه بالقوانين المجردة من الوازع الأخلاقي منها بالأحكام

الشـــرعية الإلهيـــة المؤطرة بإطار قيمي أخلاقي، فعمل الإمام على ردم الهوة بين الفقه والأخـــلاق، ووصـــل مـــا افترق منهما، واستيحاء الأحكام الفقهية في ضوء المعايير الأخلاقية. وليس هنا متسع لإشباع البحث في هذه المسألة.

أما أهم الأبعاد العلمية المجهولة على نطاق واسع في شخصية الإمام الخميني، فهو تفســيره لـــلقرآن الكـــريم وإسهامه في صياغة منهج محدد المعالم في استنطاق مداليل الآيات الشريفة. فإن جهوده في هذا المضمار ظلت مغيبة في الحوزة العلمية فضلاً عن خارجها، ولولا مبادرات اضطلع بها مؤخراً بعض الباحثين، ممن اشتغل على تجميع ما فســـره الإمام من آيات، ومعالجة أصول منهجه في فهم الآيات، لولا ذلك لظلّ هذا الـــبعد العـــلمي في شخصية الإمام مهملاً إلى الأبد، ولم ينتفع الدارسون والمهتمون بالتفســـير وعـــلوم القرآن من محاولة جادة لتقويم منهج التفسير، وأسلوب متميز في استكناه معاني الكتاب الكريم.

ويمكـــن القـــول ان دراسة الأخ الأستاذ عبد السلام زين العابدين التي نقدمها لـــلقراء في هذا الكتاب تعد أول معالجة باللغة العربية ترسم بجلاء معالم منهج الإمام الخميـــني في تفســـير القرآن، ينجزها باحث أمضى ما يناهز عشرين عاماً في صحبة التفسير وعلوم القرآن دارساً وأخيراً مدرساً في الحوزة العلمية.

وهـــي محاولة لا يزعم لها صاحبها الكمال، وإنما يهدف من خلالها إلى الإعلان عـــن جهـــود فـــذة ساهم بها الإمام الخميني في حقل التفسير والدراسات القرآنية، وتأسســـت عـــلى مرتكزات منهجية محددة، تصلح أن يركن إليها الباحثون كأسس تستضيء بها محاولاتهم في مضمار التفسير.

ســـيقف القارئ الذي يرافق المؤلف في هذا الكتاب في محطات ست، يلتقي في الأولى منها مع المنحى المقاصدي للتفسير عند الإمام الخميني، أي دعوة الإمام لتجاوز الطـــريقة التقيلدية التي ألفها المفسرون في التعرف على معاني الكتاب، بالاقتصار على الـــلغة وأدواتها فقط، وإهمال معرفة مقاصد الكتاب وأهدافه، لأن معنى التفسير لدى

الإمــام هــو بيان (مقصد الكتاب المفسَّر، واكتشاف المعاني والدلالات التي يريدها صــاحب الكتاب)، ويصف الإمام كل تفسير يبتعد عن غاياته وأهدافه ومقاصده بأنه تفسير ميت، بل لا يصنفه في التفاسير، ولا يطلق عليه عنوان تفسير.

ويؤكــد الإمام أن السبيل الأقوم لبلوغ المنحى المقاصدي في التفسير هو القرآن نفســه، اذ يقول: (لا بد لنا من أن نأخذ الأهداف والمقاصد من الكتاب ذاته)، مبرراً ذلــك بأن (مصنف الكتاب أعرف بأهدافه وأعلم بمقاصده وغاياته)، أما التوقف عند الجوانــب اللغوية والبيانية والبديعية للقرآن فلا يكشف عن مقاصده وأهدافه، بل إن الإمــام يعتبر هذا اللون من التعاطي مع الكتاب الكريم ضرباً من هجر القرآن، كما افصــح عــن ذلك بصراحة متسائلاً: (أترى إننا إذا صرفنا جُلَّ أعمارنا في تجويده، والاهتمام بجوانبه اللغوية البيانية والبديعية، قد أخرجنا هذا الكتاب الشريف عن حالة الهجــر؟!. أإذا عرفنا القراءات المختلفة وأمثالها نكون قد تخلصنا من هجران القرآن؟! أإذا تعلمــنا وجوه إعجاز القرآن وفنون محسناته،نكون قد أنقذنا أنفسنا من شكوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!)، ويختتم هذه الاستفهامات الاستنكارية بإجابة قاطعة (هيهات .. هيهات .. فإنه ليس شيء من هذه الأمور يمثل مراد ومقصد القرآن الكــريم ومترلــه العظيم). وتشير آيات الكتاب الكريم إلى مجموعة أهداف، تتلخص بإقامة النظام العادل في المجتمع وتنفيذ الأحكام الإلهية، وجعل القرآن قيماً على الفكر والســلوك والعلاقــات الاجتماعية، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور. ويستنتج الإمــام الخميــني مفهومــاً للظلمات يتسع ليشمل جميع مظاهر الانحطاط والتخلف الاجتماعي، والتي من أشدها (التبعية للغرب، والانبهار به) ويصف الإمام ما ينشأ من عقــدة الحقارة إزاء الغرب وتقليده في كل شيء، بأنها في بحر لجي من الظلمات، فإن (جميع التشبهات بالغرب ظلمات، وهؤلاء المبهورون بالغرب تاهوا في الظلمات، وإن أوليــاءهم الطــاغوت). ويشدد في مناسبة أخرى على أن سبيل الانعتاق من التبعية يكمــن بالاعتصام بالقرآن، وحضوره في جميع شؤون حياتنا، فإن (القرآن هو الذي

يهدينا إلى الأهداف السامية، التي تطلبها ذواتنا ــ الفطرة ــ ونحن نجهل ذلك)، وإن (القرآن هو ملاذنا جميعاً)، فهو كتاب (صناعة الإنسان)، وهو (كتاب دعوة وإصلاح مجـتمع .. وكتاب صراع وحرب مع الطواغيت والقوى المستكبرة .. وكتاب إقامة حكومة العدل الإلهي)، فلماذا نقصيه من حياتنا، ونحبسه في المقابر والمآتم؟! إنه سيلبث التخلف مهيمناً على مجتمعاتنا ما دام (هذا الكتاب المصيري، لم يعد له دور سوى في المقابر والمآتم، على يد المتآمرين الأعداء، والجهلة الأصدقاء). وقد يتساءل البعض عن الآثـار التفسيرية للإمام الخميني، خاصة وأن الإمام لم يدوِّن كتاباً مستقلاً في تفسير القـرآن، فكيـف يُصنَّف مع المفسرين؟ بل كيف نسعى لاستكشاف منهج تفسيري خاص به؟.

في المحطـة الثانية من هذا الكتاب يقف القارئ على عرض شامل لتراث الإمام التفسيري، وسيجد فيه إجابة وافيه على التساؤل السابق، يوجزها المؤلف بالإشارة إلى أن الإمام صحيح أنه لم يصنف تفسيراً مستقلاً للقرآن، غير أن التفسير انبث في آثاره كـلها، ففي مؤلفاته العرفانية والفقهية والأصولية والسياسية، نلتقي بجهود كبيرة في الإفادة من النص القرآني والرجوع إليه كمحور في استلهام الرؤية الصائبة، أما بياناته وخطاباته السياسية الكثيرة، فقد استوحى أفكارها من الآيات الكريمة، وأمست بمثابة التفسير السياسي والاجتماعي للقرآن.

وفي المحطـة الثالثة يدلنا المؤلف على ثلاثة أبعاد ترتسم في تفسير الإمام، يستهل الحديـث عـن الـبعد العرفاني العقائدي، فيوضح كيف أن الإمام وظَّف العرفان في الدفـاع عـن المحرومين، فصير العرفان منهلاً استقت منه مواقفه الثورية الصارمة، في الدفاع عن حريات المضطهدين، وتبني قضايا المستضعفين.

ويمضي في الحديث عن البعد الثاني السياسي الثوري، ما قام به الإمام من إحياء بعـض المصـطلحات السياسية في القرآن، وتوظيفها كشعارات في المعارك السياسية للأمة. فأضحى الطاغوت، والشيطان، والاستكبار، والاستضعاف، والسحت، وغير

ذلك من مصطلحات قرآنية، يجد مصداقه في الممارسات العدوانية للسياسة الأمريكية والأوربية حيال شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية.

وفي البعد الثالث ((التربوي الأخلاقي)) يقتطف المؤلف بعض الإشارات التي يشدد فيها الإمام على أثر التزكية في استيعاب الكتاب والحكمة، وتقدم التزكية رتبة على التعليم (ويزكيهم ويعلمهم)، فإنه ما لم يتطهر الإنسان معنوياً ويزكو روحياً فلا ينال الكتاب ولا يدرك الحكمة. ثم يستخلص الباحث المفردات الأساسية في منهج الإمام التفسيري، فيوجزها في المنهج العقلي التدبري، والمنهج الشهودي العرفاني، والمنهج النقلي الروائي. بينما يحاول الكاتب في المحطة الخامسة بيان المعالم والاسس الاولية للثورة والدولة في القرآن الكريم طبقاً لرؤية الامام الخميني. وفي خاتمة المطاف يلاحق الاخ عبد السلام زين العابدين تطبيقات المنهج التفسيري للامام الخميني في فريضة الحج، وما تفصح عنه الآيات الكريمة من تجليات تربوية واجتماعية وسياسية في هذه الفريضة. وبذلك يفرغ من بيان مرتكزات واسس تفسير الامام الخميني.

تجدر الاشارة الى ان هذه الدراسة تشي بصورة إجمالية عن معالم وأصول تفسير الإمام وتعد بمثابة مدخل يعرِّف القرّاء بجهود الإمام الخميني في التفسير، ومسعاه للمساهمة في تطوير مناهج التفسير والدراسات القرآنية.

وتضع مجلة قضايا إسلامية معاصرة هذا الكتاب بين أيدي الباحثين والدارسين والمهتمين بالدراسات القرآنية، بغية تنمية البحث في هذا الحقل الهام في العلوم الإسلامية، والكشف عن أحد أبرز الأبعاد المجهولة لدى الكثيرين في شخصية الإمام الخميني.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

عبد الجبار الرفاعي

مقدمة المؤلف

قد يعتقد البعض أن الإمام الخميني (قدس) رغم تجسيده للمرجعية الرشيدة بكل أبعادها وشروطها وآفاقها، من علم وفقاهة، وبصيرة وعدالة، وشجاعة وكفاءة، ورغم أدائه ــ بحق ــ دور المرجع الشهيد على الأمة، امتداداً لدور الأنبياء والأئمة عليهم السلام، فإننا لا يمكن أن نعدّه من المفسِّرين المعاصرين، فضلاً عن أن يكون صاحب فتح جديد، وانعطافة كبيرة في عالم التفسير في العصر الحديث، ذلك لأنّه لا يمتلك موسوعة تفسيريّة كما يمتلكها المفسِّرون المعروفون على مدى التاريخ، أمثال الطبرسي والطوسي والزمخشري والرّازي وسيد قطب والطباطبائي وغيرهم من أعلام التفسير من القدماء والمعاصرين .. وكأن المفسِّر بنظر هذا البعض هو من يمتلك دورة تفسيريّة تبدأ من سورة الفاتحة لتنتهي في سورة الناس!.

وهذه ــ بالطبع ــ نظرة تقليديّة ساذجة للتفسير والمفسِّر على حدّ سواء، تفتقر الى المقياس الصحيح، والمعيار السليم، في التشخيص والتقييم، لأنّها تعتبر التفسير التجزيئي هو النمط الوحيد، والاتّجاه الفريد في التفسير .. وبذلك لا يمكن أن نطلق على شخص بأنه مفسِّر ما لم يتملك الدورة التجيزيئية كاملة كانت أو ناقصة، مهما امتلك ــ هذا الشخص ــ من منهج في التفسير متكامل، وفهم للقرآن متميِّز، وأبحاث موضوعيَّة قيّمة منطلقة من النصوص القرآنيّة، مبتنية على ضوئها وأساسها.

إن هذه النظرة الضيِّقة في أفقها، المحدودة في أبعادها، لا تنسجم حتّى مع تعريف التفسير وشروط المفسِّر، رغم تعدد التعريفات، واختلاف الشروط والمواصفات، التي ذكرها العلماء السابقون والمعاصرون.

فقد عُرِّف التفسير ــ اصطلاحاً ــ بأنه ((علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشريّة))[1]، وعرّف ــ ثانياً ــ بأنه ((علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيّه محمد (ص) وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ))[2]، وعرِّفَ ــ ثالثاً ــ بأنه ((بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها))[3] وعرِّفَ ــ رابعاً ــ بأنه ((هو العلم بأصول يعرف بها نزول الآيات، وشؤونها، واقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثمّ ترتيب مكّيّها ومدنيّها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصّها وعامّها ..))[4].

وهذه التعريفات الأربعة وغيرها رغم اختلافها فإن محصلتها واحدة، وهي أن التفسير هو العلم بأصول ومبادئ وقواعد الكشف والبيان، عن معاني ودلالات ومقاصد القرآن، بما في وسع وطاقة الإنسان. وبالتالي فإنّ المفسِّر هو من يمتلك تلك الأصول والمبادئ والقواعد نظريّاً، ويمارس التفسير وفقها تجزيئيّاً أو موضوعيّاً، مهما كانت دائرة هذه الممارسة في سعتها وضيقها.

وبناءً على ذلك يمتدُّ أفق التفسير ليشمل حتّى البحوث والدراسات التي انطلقت من النصوص القرآنيّة، واستمدت منها أفكارها ونظرياتها الأساسيّة .. وبالتالي تتّسع دائرة المفسِّرين لتشمل علماء ومفكِّرين أسسوا مشاريعهم الفكريّة على ضوء القرآن

١- الزرقاني. مناهل العرفان، ١ : ٤٦.

٢- السيوطي. الإتقان، ٢ : ١٢٢. نقلاً عن الزركشي.

٣- الطباطبائي: الميزان : ٤ المقدمة.

٤- دائرة معارف البستاني، مادة تفسير.

الكريم أمثال جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغاني، ومحمّد باقر الصدر، وحسن البنّا، ومـــالك بن نبي، ومرتضى المطهّري، وموسى الصدر، فهؤلاء الأعلام ـــ رضوان الله عليهم ـــ وغيرهم لا تعدّهم النظرة التقليدية من المفسِّرين، في الوقت الذي يُعَدّون فيه من روّاد التفسير في العصر الحديث.

وفي المقـــابل، قد لا نعد البعض من المفسِّرين رغم تأليفه لدورة تفسيريَّة تجزيئيّة كاملة، لافتقاره المنهج المنقّح، بأصوله وأدواته وقواعده، فكيف بالذي لا يملك منهجاً أصـــلاً؟! إنّـــه أَولى بأن يسمّى ناقلاً أو ناسخاً أو ملخِّصاً أو جامعاً .. من أن يسمّى مفسِّـــراً. بل قد يخرج من زمرة المفسِّرين حتّى الذي توفّر على المنهج بدرجة ما، بَيْدَ أنّـــهُ حـــوّل أدواته إلى أهداف، ووسائله إلى مقاصد وغايات، فلم يتقدّم خطوة على طريق كشف المقاصد والمعاني والدلالات، فجاءت تفاسيرهم ضرباً من ((التمرين في الفـــنون كالنحو والمعاني وغيرها))، وهذا ((لا ينبغي أن يُسمّى تفسيراً))[1] على حدِّ تعبير الإمام محمد عبده ـــ رحمه الله.

ومن دون شكٍّ فإنَّ الإمام الخميني يعدُّ على رأس هؤلاء الروّاد الكبار، لما حقّقه من فتح في عالم التفسير، وثورة على صعيد وعي كتاب الله العزيز وإنّ سرّ هذا الفتح، وتـــلك الـــثورة، يكمن في منهج التفسير الأصيل والمعاصر الذي توفّر لديه، بأصوله ومـــبادئه وقواعـــده من جهة، وبنظراته الكليّة للأهداف والغايات والمقاصد القرآنيّة الأساســـيّة مـــن جهـــة أخرى، ذلك لأنَّ طبيعة المنهج ومدى أصالته هي التي تعطي للممارســـة التفســـيريّة صـــبغتها وأبعادهـــا ومعالمها، كما أنها هي التي تحدِّد مدى استقامتها، أو انحرافها، فاعليّتها أو جمودها، سعة آفاقها أو ضيقها.

وفي دروســـه التفسيريّة التجزيئيّة التي بدأها عام ١٤٠٠هـــ، بُعيد انتصار الثورة الإســـلاميّة، والتي بُثّت عبر أجهزة الإعلام المرئيّة، أشار في مقدِّمة درسه الأوّل إلى أنَّ ((تفسير القرآن ليس من المهمّات التي يستطيع أمثالنا أداء حقِّها))، وأشاد بجهود بعض

١- محمد رشيد رضا : المنار : ١ : ٢٤.

المفسِّــرين، مــن القدماء والمعاصرين، أمثال الطبرسي وابن عربي والطنطاوي وسيِّد قطــب، وشكر مساعيهم الكبيرة .. لكنّه يرى أنَّ هؤلاء الأعلام وإنْ كانوا ((علماء الطــراز الأول من العامّة والخاصّة .. بيد أن كلَّ واحد منهم لم يقم بأكثر من كشف أحد أغطية القرآن الكريم وفقاً لاختصاصه))، فما قام به العرفاء أمثال ابن عربي، من الذيــن فسّروا القرآن وفق طريقتهم المعرفية ((هو كشف لبعض الحجب عن القرآن الكــريم، وقــراءة لبعض أوراقه))، وما سعى إليه الطنطاوي وسيِّد قطب وأمثالهما، بتفسير القرآن بطريقة أخرى ((هو كشف لغطاء آخر عنه)) .. وهكذا الحال بالنسبة لتفســير (مجمع البيان) للطبرسي رغم كونه ((تفسيراً جيِّداً وجامعاً بين أقوال العامة والخاصّــة))[1]، ذلك لأن القرآن ((ليس كتاباً نستطيع نحن أو غيرنا أن يكتب تفسيراً جامعاً له يتضمّن كافّة علومه))[2].

ويــرى الإمام أن المفسِّر الذي يقحم نفسه في ميدان التفسير من دون أن يأخذ لــلمهمّة الصــعبة والخطيرة أهبتها وعدّتها وأدواتها .. فإنه ـــ والحالة هذه ـــ قد لا يكون بعيداً عن قول رسول الله (ص): ((من تكلّم في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من الــنار))! ولهــذا نسمعه يحذِّر ((الذين لم يصلوا بعد إلى المستويات العالية من النضج العــلمي، والشــباب غير العارفين بالمسائل الإسلاميّة، والأشخاص الذين لا يملكون الاطّلاع على الإسلام، أن يلجوا في ميدان التفسير))[3].

من جهة أخرى يعتقد الإمام أن الفهم الخاطئ لحديث ((التفسير بالرأي)) ساهم مساهمة كبيرة في عرقلة مسيرة التفسير، وتعطيل العقول عن التدبّر والتفكير، فإن ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى أن نتخذ القرآن مهجوراً.

١- تفسير سوره حمد : ٤ ـــ ٥ راجع الترجمة العربية ((تفسير آية البسملة)). دار الهادي.

٢- نفس المصدر : ٥.

٣- نفس المصدر.

لقد كانت النظرات النقديِّة التي أبداها مفسِّرنا الإمام لمسيرة التفسير القرآني صائبة للغاية، فقد شخّص العوامل الداخليّة والخارجيةِ التي جعلتها تراوح مكانها، وتنأى عن أهدافها ومقاصدها، إلى درجة جعلته يعتقد أنه لم يكتب تفسيرٌ للقرآن لحدِّ الآن[1]! كما دعت مفكّراً مبدعاً، وناقداً فذّاً، كالمرجع الشهيد محمد باقر الصدر (قدس) إلى أن ينعى الحالة ((التكرارية)) التي جعلت المسيرة التفسيريّة تكاد تمتاز بطابع ((الثبات)) و ((عدم التغيير)) خلال قرون عديدة، ((على الرغم من ألوان التغيير التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين))[2].

من هذا المنطلق دعا وبقوّة إلى ضرورة كسر الجمود والتحجّر في التعامل مع كتاب الله، وإعمال العقل في تدبّر آياته، والانطلاق على ضوء أهدافه ومقاصده إلى أقطاره وآفاقه، وعدم الجمود ((على ما كتبه المفسِّرون أو فهموه)) حتى لا نُحرم قيموميّته وفرقانيّته وهيمنته وعطاءه الثر، ونوره ورحمته وبركته وبحره الذي لا يدرك له قعر.

و لم يكتف الإمام بالممارسة النقديّة، بل سعى جاهداً إلى إعطاء البديل، ليقدّم لنا منهجاً في تلقّي القرآن فاعلاً، بوصفه الكتاب ((القيّم)) و ((المهيمن)) و ((الفرقان)) و ((العزيز)) و ((الحاكم)) و ((الحكيم)) .. ليكون رائداً لمسيرة الصراع والجهاد والتغيير، تجسيداً لقول الله عز وجل:

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[3] و(الظالمون)[4] و(الفاسقون)[5].

١- الإمام الخميني. آداب الصلاة: ٢٩٨ ترجمة: مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام.

٢- الشهيد الصدر. المدرسة القرآنية: ١٨ دار المعارف ــ بيروت ١٤٠٠هــ.

٣- سورة المائدة: ٤٤.

٤- سورة المائدة: ٤٥.

٥- سورة المائدة: ٤٧.

إنهــا السمات الثلاث (الكفر ، الفسق ، الظلم) التي يوسم بها كلّ من لا يسعى إلى قيمومة القرآن وحاكميّته وهيمنته على الساحة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ..، حتّى وإن كان حافظاً للقرآن عن ظهر قلب، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار.

وإذا تتبّعــنا بدقّة السور والآيات المباركة التي تعرّض لها مفسِّرنا الإمام بالشرح المفصّــل تــارة، والإشارة السريعة تارة أخرى، وما طرحه من نظرات كليّة منهجيّة حــول التفســير القرآني، نجد أنفسنا أمام منهج متميِّز وفريد في تفسير القرآن المجيد. ذلك المنهج الذي جمع كلّ المناهج التفسيريّة وصهرها في بوتقة واحدة .. فجاء متنوّعاً في وسائله وأدواته، كما هو متنوّع في أبعاده واتجاهاته، كما سنرى إن شاء الله.

ولهذا امتزج المنهج العقلي بالنقلي، والمنهج الفلسفي البرهاني بالشهودي العرفاني، فالــتقى التدبّر بالتذكّر، والتفسير بالتأويل، والظاهر بالباطن، فكان ـــ بحق ـــ منهجاً مــتعدِّد الأبعاد، متنوِّع الأصول والوسائل والأدوات، متحرراً من كل ما يعيق العقل عــن الانطــلاق في اكتشاف دلالات ومعاني وأسرار الآيات القرآنيّة، بقدر الطاقة البشريّة والوسع الإنساني.

من هذا المنطلق كانت مهمّة استكشاف المنهج الخميني في التفسير ليست يسيرة على الإطلاق، بل هي صعبة وعسيرة، لأنها تحتاج إلى شخصيّة هي الأخرى ينبغي أن تكون متنوّعة المنهج متعدِّدة الاختصاص والأبعاد، تجمع بين العرفان والبرهان، والعقل والــنقل، والتفســير والــتأويل، حتى تستطيع أن تحدد مفردات المنهج بدقّة وعمق، وتعرضــها ببساطة ووضوح وصدق. وهذا ما لم يتوفّر في شخصيّة الكاتب ببضاعته المــزجاة، بيد أنه يتطلّع إلى ما تجود به أيدي أهل البرهان والعرفان والظاهر والباطن، ليوفوا له الكيل، ويتصدّقوا عليه، إنّ الله يجزي المتصدِّقين.

وحســبه أن يلفت الأنظار إلى هذا البعد الخفي في شخصيّة وتراث الإمام، رغم أصالته وسعته وعمقه، وكونه المنطلق الأساس في ثورته وقيامه ونهضته ودولته، عسى

أن تكون هذه المحاولة منطلقاً لبحوث أوسع وأكبر وأنضج واعمق في اكتشاف أروع منهج في التفسير، يمتدُّ مع آفاق القرآن الواسعة، وساحات صراعه، وميادين جهاده:

(فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً)[1]، ليبدأ من ميدان النفس التي هي بأنانيّتها ((أم الأوثان))، وأعدى أعداء الإنسان، وينتهي بميدان القوى الكبرى الغاشمة، والـــدول العظمى المستكبرة الظالمة، والتي هي في حقيقتها وواقعها ـــ بنظرة مفسِّرنا القرآنيّة ـــ قوى شيطانيّة عنكبوتيّة، فهي ـــ إذن ـــ ضعيفة الكيد، واهنة البيت: (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).

عبد السلام زين العابدين

(أبو مالك الموسوي)

١٥ شعبان ١٤١٨هـ

١٩٩٧/١٢/١٦

١- سورة الفرقان: ٥٢.

الفصل الاول

نحو تفسير مقاصدي للقرآن

((وا أسفاه! إن القرآن، هذا الكتاب المصيري، لم يعد له من دور سوى في المقابر والمآتم،على يد المتآمرين الأعداء والجهلة الأصدقاء))[1].

إنّها زفرات الحزن واللوعة والمرارة التي يكتوي بنارها مفسِّرنا الإمام، وهو يبثُّ أسـفه العميـق، في وصـيّته العباديّة السياسيّة، على ما آلت إليه الأمّة الإسلاميّة في علاقـتها مع كتاب الله العزيز، الذي ما أُنزل إلا ليكون قيّما وإماماً وفرقاناً ومهيمناً وحاكمـاً: ((لقد بلغ الأمر أن دور القرآن أصبح ـ بيد الحكومات الجائرة ورجال الديـن الخبـثاء، الأسوإ من الطواغيت ـ وسيلة لإقامة الجور والفساد، وتبرير ظلم الظالمين وأعداء الحقِّ تعالى))[2].

إنّه الهمُّ الكبير الذي كان يعيشه، والمسؤوليّة الجسيمة التي نذر نفسه للاضطلاع بهـا، من أجل ما أسماه بـ ((إنقاذ القرآن من المقابر))! ليأخذ دوره الريادي الفاعل في صناعة الإنسان الكامل، والأمّة الشاهدة الرائدة، والدولة العادلة المقتدرة.

القرآن : سرُّ قوتنا وسيادتنا

إنّ القـرآن ـ بنظر مفسِّرنا الإمام ـ ما أُنزل إلاّ لصنع ذلك ((الثلاثي)) بجميع أبعاده، صناعةً إلهيّة ربانيّة : الإنسان ، الأمة ، والدولة. ولهذا نسمعه يؤكّد مراراً اننا إذا قـرأنا القـرآن، ولـو قراءة سطحية، ندرك هذه الحقيقة الماثلة في كُلِّ سورة من سـوره، بل كلِّ آية من آياته: فكم هي واسعة شاسعة مساحة آيات الحرب والجهاد والقـتال! الـتي تدعونا إلى التضحية بالنفوس والأموال، في سبيل الله والمستضعفين، لمواجهة الظالمين المستكبرين.

وكـم هـي كـثيرة آيـات الصراع مع الطاغوت بكافة أشكاله وألوانه! التي تستنهضنا لمحاربته ورفضه والكفر به.

١- راجع : وصيّة الإمام ((صحيفة الثورة الإسلامية)) : ٥.

٢- راجع : نفس المصدر.

وكـــم هي عديدة آيات التعبئة والاستعداد! التي تحذّرنا من الكسل والاسترخاء والغفلة، وتأمرنا بالحركة والوعي واليقظة، وإعداد ما استطعنا من قوّة[1].

إن القرآن الكريم لزاخرٌ بتلكم الآيات المباركات إلى درجة يكتشف فيها القارئ مهما كان بسيطاً، أنَّ منطق القرآن هو منطق ((القوّة والثورة والدولة))، منطق ((قيام المستضـــعفين بوجـــه المســـتكبرين)).. مـــنطق ((الجهاد والعطاء والبذل والتضحية والفداء)).

من هذا المنطلق يكشف لنا سرَّ المؤامرة الكبرى على القرآن، من أجل إبعاده عن ساحتنا،وإقصـــائه مـــن مجتمعنا، بتفريغه من محتواه، وتضييع طابعه الحيوي والثوري، وتمييع منطقه المتحدي القوي:

(وقـــال الذيـــن كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)[2]!! إنه الشعار القديم الجديد الذي نقله لنا القرآن على لسان الأعداء أنفسهم، بأنّه لا أَمل ولا رجاء بغلبة المسلمين والانتصار عليهم إلا بإقصاء القرآن واللغو فيه!!

يقـــول الإمام : لقد طالع أعداؤنا القرآن، وأدركوا جيِّداً أنّه سرُّ قوتنا، ونهضتنا، ووحدتـــنا، وســـيادتنا، وانتصارنا، وغلبتنا .. وأنّهُ كتابٌ لو أخذه المسلمون بقوّة، واســـتجابوا لنداءاته وأوامره وتوجيهاته، لمامكّنوا لأعدائهم أيّة سلطة، ولا أدنى سبيل عـــليهم .. ذلك لأنّ القرآن يصدح: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)[3] (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين)[4]، وينشد نشيد القوّة والاعتصام والوحـــدة: (وأعـــدوا لهـــم مـــا استطعتم من قوّة)[5] (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا

١- راجع : صحيفة نور : ٢ : ١٦٤.

٢- فصلت : ٢٦.

٣- النساء : ١٤١.

٤- آل عمران : ١٣٩.

٥- الأنفال : ٦٠.

تفرّقوا)[1]، ويحذّر من التنازع والفشل واليأس والكسل: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكـــم)[2] (اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون)[3]. إلى غير ذلك من مئات الآيات التي تخاطب المسلمين من أجل أن يعيشوا القوّة والمنعة والعزّة والغلبة[4].

وهـــذه هي ذات الصرخة التي أطلقها جمال الدين الذي كان يرى القرآن ملهماً لجهاد المسلمين وكفاحهم ضدَّ المستعمرين: ((ما دام القرآن يتلى بينهم، وفي آياته ما لا يصعب على أفهام قارئيه، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم))[5].

من هذا المنطلق يؤكد (قدس) عل أنَّ هجر القرآن الكريم من قبل المسلمين يعني هجر كلّ تلك المعاني والقيم، وسقوط موقعهم الريادي والقيادي بين الأمم، إلى درجة يُصبح فيها مصيرهم- شعوباً وحكومات- أُلعوبةً بيد السياسات الاستعماريّة والدول الاستكباريّة، كما هو الحال في واقعنا المعاصر.

وبذلك تحقّق ما كان يصبو إليه الأعداء في الحيلولة بين الأمة والقرآن:

(لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلِبون).

متى يكون المفسِّر مفسِّراً؟

إنّ الشـــرط الأوّل والأساس ــ برأي الإمام ــ الذي يجب أن يتوفّر عليه مفسِّر القرآن، هو أنْ يعيش مقاصده وأهدافه وغاياته، ليجسِّد كلّ ذلك في تفسيره، حتى لا تـــتحوّل أدوات التفسير إلى غايات، ووسائله إلى مقاصد وأهداف، فيعيش المفسِّر ــ والحالة هذه ــ بعيداً عن أهداف القرآن ومقاصده، بعيداً عن أجواء الرسالة التي أراد أن يبـــلّغها، وخطـــوات الصـــراع التي نزل ليقودها .. وذلك لأنّ عزل الآيات عن

١- آل عمران : ١٠٣.

٢- الأنفال : ٤٦.

٣- آل عمران : ٢٠٠.

٤- راجع : صحيفة نور : ٧ ، ٣ ، ١٦ ، : ٤٠٧ ، ٥ ــ ٤ ، ٣٩ راجع كذلك : الحكومة الإسلامية: ٩.

٥- جمال الدين : العروة الوثقى : ١ : ١٥.

أجوائهـــا الرساليّة، وأهدافها الأساسيّة، وحركتها التغييريّة، يفقدها زخمها وفاعليّتها وحيويّتها، كما يفقدها دلالاتها الواقعيّة، وآفاقها الحقيقيّة، يقول الإمام:

((والمفسِّر إنما يكون مفسِّراً، عندما يُفهمنا (الهدف والمقصد) من الترول، وليس (سببه) كما هو المتعارف في التفاسير))[1].

إن ابـــتعاد المفسِّـــر عن أهداف الترول ومقاصده، هو السرّ الكامن وراء تعامله الشكلي الباهت في استكشاف المعاني والدلالات، إلى درجة تتحوّل فيها أشدّ الآيات حيويـــةً وحرارة وحركيةً إلى أبرد من الثلج! وتحصر أكبر الآيات أبعاداً وأبعدها آفاقاً في زوايا صغيرة مظلمة، وآفاق ضيِّقة معتمة!.. ولهذا أصبحنا مصداقاً صارخاً لشكوى الرسول الأكرم (ص) التي يبثّها في عرصة القيامة، بكل حرقة ومرارة: (وقال الرسول: يـــا رب إنّ قومـــي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً)[2]، يستوي في ذلك المفسِّرون وغير المفسِّرين، والعلماء والجاهلون!!

يقـــول مفسِّـــرنا الإمام: ((إن هجر القرآن له مراتب كثيرة، ومنازل لاتُعدّ ولا تُحصى، ولعلنا متّصفون بالعُمدة منها))، ثم يتساءل مستنكراً تلك الحالة المأساويّة التي عليها المسلمون، بل المفسِّرون، في علاقتهم مع كتاب الله العزيز، قائلاً:

((أتـــرى أننا إذا جلّدنا هذه الصحيفة الإلهية جلداً نظيفاً وقيّماً، وعند قراءتها أو الاستخارة بها قبّلناها ووضعناها على أعيننا، ما اتخذنا القرآن مهجوراً؟!

أتـــرى أنـــنا إذا صرفنا جُلَّ أعمارنا في تجويده والاهتمام بجوانبه اللغويّة والبيانيّة والبديعيّة، قد أخرجنا هذا الكتاب الشريف عن حالة الهجران؟!

أإنّـــنا- إذا عرفنا القراءات المختلفة وأمثالها- نكون قد تخلّصنا من عار هجران القرآن؟!

١- آداب الصلاة : ٢٩٨.

٢- الفرقان : ٣٠.

أإنّـــنا إذا تعلّمـــنا وجـــوه إعجاز القرآن وفنون محسّناته، قد أنقذنا أنفسنا من شكوى رسول الله (ص)؟!

هيهـــات .. هيهات .. فإنه ليس شيء من هذه الأمور يمثّل مراد ومقصد القرآن الكريم ومنزّله العظيم))[1].

إن مشـــكلة التفســـير القرآني، وقراءة النص، تكمن ـــ بنظر مفسِّرنا الإمام ـــ بغيـــاب ما يمكن أن نسميه بـــ(التفسير المقاصدي) الذي يسمو فيه المفسِّر إلى مقاصد القـــرآن الكـــبرى، وأهدافه العليا، التي ما نزل إلا من أجل تحقيقها وتجسيدها، على صعيد الفرد والمجتمع:

((إن المفسِّر الذي يهمل هذه الجوانب أو يغفل عنها أو لا يهتم بها، يكون غافلاً عـــن أهـــداف القرآن والغاية الأساسية من إنزال الكتب وإرسال الرسل. وهذا خطأٌ فـــادح أدّى إلى حـــرمان الأمّةالإســـلاميّة ـــ منذ قرون ـــ من الاستفادة من القرآن الكريم، كما أدّى إلى سدِّ طريق الهداية بوجه الناس الآخرين))[2].

من هذا المنطلق يرى أنّه لم يُكتب لحدِّ الآن تفسير للقرآن!! رغم ما نشاهده من كثافة المؤلفات التفسيريّة المتنوِّعة في اتجاهاتها ومناهجها، عبر القرون المتطاولة، حيث يقـــول بصـــراحة: ((وفي عقيـــدتي .. أنـــه لم يكـــتب لحد الآن تفسير لكتاب الله (القرآن)))[3]. وقد يستغرب البعض من هذا الكلام، ويعتبره مصادرة لجهود المفسِّرين الأعـــلام، بَيْدَ أنّه (قدس) يعلِّل ذلك بقوله: ((لأنَّ معنى التفسير ـــ على نحو كلّي ـــ هـــو شرح مقاصد الكتاب المفسَّر، واكتشاف المعاني والدلالات التي يريدها صاحب ذلك الكتاب))[4].

١- راجع : آداب الصلاة : ٣٠٥، الآداب المعنوية للصلاة : ٢٤٢.

٢- راجع : آداب الصلاة : ٢٩٩.

٣- راجع : نفس المصدر : ٢٩٨.

٤- راجع : نفس المصدر.

ومع ذلك، فإن مفسِّرنا يعود ليرفع ذلك الإشكال الذي قد يرد، فيقول: ((ليس مقصـــودنا مـــن هذا البيان الانتقاد للتفاسير، فإن كلَّ مفسِّر من المفسِّرين قد تحمّل مشاق كثيرة، وأشكالاً من العناء كبيرة، حتى صنّف كتاباً قيِّماً، فلله درّهم! وعلى الله أجـــرهم، وإنمـــا نريد التأكيد على ضرورة أنْ نفتح للناس سبل الاستفادة، ونمهِّد لهم طريق الانتفاع من هذا الكتاب الكريم))[1].

وقـــد أشاد ـــ في دروسه التفسيريّة التي بدأها بُعيد انتصار الثورة الإسلاميّة ـــ بجهـــود جمـــلة من المفسِّرين الأعلام، من السابقين والمعاصرين، ورأى أنّ كلّ واحد مـــنهم، وبحســـب اختصاصه واتجاهه، قد أوضح جانباً من جوانب القرآن، وكشف حجابـــاً من حجبه، وأزاح غطاءً من أغطيته، وأشار إلى المهمة الصعبة التي اضطلع بها المفسِّرون على مدى قرون، من السنة والشيعة، وان هذه هي طبيعة التفسير لبحر ((لا يترفـــه المستترفون، وعيون لا يُنضبها الماتحون، ومناهل لا يَغيضها الواردون))[2]، حيث يقـــول: ((القرآن ليس الكتاب الذي نستطيع نحن أو غيرنا تصنيف تفسير جامع له، يتضـــمن كافّة علومه كما هي، فإن فيه علوماً هي فوق إدراكنا وفهمنا، وإنّنا ندرك ظاهراً منه، ونفسِّرُ غطاءً من أغطيته))[3].

بيـــد أنّ ذلـــك لا يعذر المفسِّرين الذي غفلوا عن مقاصده وأهدافه، وانشغلوا بأهداف أدبيّة بلاغيّة، أو نحويّة صرفية، أو وقائعية تأريخيّة، وغير ذلك .. حيث يقول:

((إن صـــاحب هذا الكتاب (القرآن) ليس ((السكّاكي)) أو ((الشيخ)) ليكون مقصـــده جهات البلاغة والفصاحة، ولا هو ((سيبويه)) أو ((الخليل)) ليكون هدفه الـــنحو والصرف، كما أنه ليس ((المسعودي)) و ((ابن خلّكان)) حتى يبحث حول تأريخ العالم))[4]!

١- راجع : نفس المصدر : ٢٩٩.

٢- الإمام علي : نهج البلاغة : في صفة القرآن : خطبة ١٩٨، فقرة ٢٨.

٣- تفسير سوره حمد (فارسي) : ٥ راجع تفسير آية البسملة : ١٢.

٤- آداب الصلاة : ٣٠٠.

وقد دعا التفسير المقاصدي بعض المفسِّرين في العصر الحديث أمثال الإمام محمد عـــبده، حيث اقتبس صاحب المنار منه قوله: ((والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب مـــن حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فـــإنّ هـــذا هـــو المقصـــد الأعـــلى منه، وما وراء هذا من المباح تابع له أو وسيلة لتحصـــيله))[1]. ولهـــذا يرى أنّ التفسير قسمان، ((أحدهما جاف ومبعِدٌ عن الله وعن كـــتابه، وهـــو مـــا يقصد به حلّ الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمي إليه تلك العـــبارات والإشارات من النكت الفنيّة .. وهذا لا ينبغي أن يسمّى تفسيراً، وإنما هو ضربٌ من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرها))، وثانيهما هو التفسير ((الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها ... فالمقصد الحقيقي وراء كلّ تلك الشروط والفنون: هو الاهتداء بالقرآن))[2].

ويعد العلاّمة الشيخ طنطاوي جوهري[3] من أبرز المفسِّرين- في العصر الحديث- الذيـــن دعـــوا إلى ضـــرورة عيش مقاصد القرآن وتجاوز ((علوم لفظه)) إلى ((علوم معـــناه))، لاكتشاف لطائفه وجواهره ومقاصده ومغزاه، والاستجابة لنداءات القرآن في وحـــدة الأمّة الإسلاميّة، ونبذ التنازع، والأخذ بأسباب القوّة والنهضة، والتخلّص مـــن التـــبعيّة الذليـــلة للغرب، جرّاء حالة الانبهار به، وتشخيص الأمراض السياسيّة والاجـــتماعيّة الـــتي آلت بالأمّة إلى أن تعيش التخلّف والتقهقر والانحطاط، بعد أن كانت في أوج تألّقها الحضاري والمدني.

وقـــد عـــزا المفسِّـــر طنطاوي ذلك إلى ابتعاد علماء الإسلام عموماً، والمفسِّرين خصوصـــاً، عن مقاصد القرآن وروحه ومغزاه، وانشغالهم بأساليبه البيانيّة، ومحسِّناته الـــبديعيّة، معتبراً الوقوف عند حدِّ أساليب البلاغة الكلاميّة ((جهالة عمياء، وشنشنة

١- تفسير المنار : ١ : ١٧.

٢- تفسير المنار : ١ : ٢٤ ـــ ٢٥.

٣- ولد سنة ١٢٨٧هـــ ـــ ١٨٧٠م، وتوفي سنة ١٣٥٨هـــ ـــ ١٩٤٠م. عن كتاب الأعلام للزركلي: ٣.

بـــتراء))، حيـــث نســـمعه يخـــاطب العلماء والمفسِّرين قائلاً: ((قولوا أيّها العلماء لـــتلاميذكم: إنَّ القرآن جاء للقدوة، ولا تقصروهم على دلالة الألفاظ، بل انقلوهم منها إلى المعاني)). ويرى أنَّ الفرق بين تلقّي الصحابة والتابعين وتلقّي المسلمين اليوم للقرآن يكمن في ذلك، حيث يقول: ((لّما كان الصحابة والتابعون يعرفون مغزاه على ســـبيل الإجمال، أطار نومهم، وأيقظ أجفانهم، فهجروا أوطانهم، واستعذبوا العذاب، وساروا في الأرض شرقاً إلى الصين، وغرباً إلى فرنسا. كلّ ذلك لأنّهم كانوا يعرفون معنى القرآن، وكانت بلاغتُهُ في نظرهم غير ما تدرسون))[1].

وقد شخّص صاحب تفسير الجواهر أسباب تخلف المسلمين، ومعوِّقات نهضتهم المعاصـــرة، وذكر أنَّ على رأس تلك الأسباب والمعوِّقات هو النظام الملكي الوراثي، الـــبعيد كـــلَّ البعد عن الإسلام والقرآن، حيث يقول: ((إن كُلَّ مصيبة حلّت بالأمّة نتجت من جهل الملوك والأمراء، وعدم اقتناعهم بالشورى، فمتى مات الأمير وخلّف المُلكَ لولد غير رشيد، ضاعت الدولة، فهي أبداً تبع الأمير جهلاً وعلماً))[2].

إنّـــهُ يـــرفض بشدّة حالة الانبهار بالغرب، وينبّه إلى مخاطر ركون هؤلاء الملوك والأمـــراء الغرب إلى الإنكليز، وهو يرى ((كثيراً من أمرائهم بالفرنجة يحتمون، وعلى مدافعهم يُعوِّلون، وبقربهم يفرحون، ولهم ينتمون، وكأنَّ الإسلام ما كان))[3]!!

لقـــد درس المستشرقون تفسير الجواهر، وأدركوا مدى خطورته على الاستعمار وعملائـــه، حـــتّى صرّح أحدهم (جوميه) ـــ بعد دراسة طويلة لهذا التفسير ـــ بأنّه وجد عند صاحبه ((طموحاً شديداً نحو بثّ الثورة في نفوس الشباب ضدَّ المحتلّين، فلا

١- طنطاوي جوهري : الجواهر في تفسير القرآن الكريم : ٢ : ٢٠٣. الطبعة الرابعة ١٩٩١م / دار إحياء التراث العربي ببروت.

٢- نفس المصدر : ٢ : ١٩٧.

٣- نفس المصدر : ٢ : ١٣٨.

يدع فُرصةً تفلت دونَ أنْ يعيد على قرّائه ذكر فريضة الجهاد وفضلها، متحمِّساً لكل ما يبذلُهُ المسلمون في محاربة الاستعمار))[1].

مـــن هنا ندرك سرَّ حملات التشويه التي شُنّت على هذا التفسير القيِّم، رغم كلّ الملاحظـــات المـــنهجيِّة عليه، كما ندرك سرَّ مصادرةِ السلطات في ((المملكة العربية السعوديّة)) له، وعدم سماحها بدخوله إلى بلادها!! تحت ذريعة ((تحميل القرآن علوماً لا عهد للعرب بها، ولا صلة للقرآن بشيء منها))[2]!!

وقـــد بعث المفسِّر رسالةً مفصّلة إلى الملك آنذاك ((عبد العزيز بن سعود)) طلب في آخرها الاجتماع ((بعلماء نجد والحجاز ليكون الحكم للحجّة والبرهان))[3].

وفي المقابل يستعرض صاحب تفسير الجواهر بعض الرسائل التي انهالت عليه من علماء إيران كرسالة العلاّمة عبد الحسين زين الدين القمّي وغيره، والتي اعتبرت هذا التفســـير يناســـب روح العصر، ويكشف الستار عن أسرار القرآن، ويميط اللثام عن محيّـــاه ويذكـــر العلاّمة زين الدين مدى استقبال الحوزة العلميّة في قم وعلماء إيران وخطبائها لهذا التفسير[4].

وقد أشار مفسِّرنا الإمام إلى هذا التفسير واعتبره من التفاسير القيّمة التي ساهمت في كشف بعض أغطية القرآن، وقَرَنَهُ بتفسير ((في ظلال القرآن)) لسيِّد قطب.

ولـــذا ندرك مدى خطأ المقولة الظالمة التي قيلت بحقِّ تفسير الجواهر: ((فيه كلّ شيء إلا التفسير)) والتي ما فتئ يرددها بعض الكتّاب، المهتمين بالدراسات القرآنية، من دون فطنة وانتباه!

١- عفّت الشرقاوي : اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث : ١٨٣. نقلاً عن كتاب (جوميه): الشيخ الطنطاوي جوهري.

٢- الذهبي التفسير والمفسرون : ٢ ٥٥٦.

٣- راجع الرسالة مفصّلة : تفسير الجواهر : ٢٥ : ٢٤٤ ـــ ٢٤٦.

٤- راجع : تفسير الجواهر : ٢٥ : ٢٩٧ ـــ ٢٩٩.

كيف نحدد مقاصد القرآن؟

على ضوء ما تقدّم يمكننا أن نردِّد مع مفسِّرنا الإمام: انَّ تفسيراً للقرآن يبتعد عن غايته وأهدافه ومقاصده لهو تفسيرٌ ميّت، بل لا يمكن أن نطلق عليه تفسيراً.

أمّـــا كيـــف يتســـنّى لنا معرفة مقاصد القرآن وأهدافه وغاياته، وما هو السبيل الأفضل لإدراكها وتشخيصها؟

يرشـــدنا مفسِّرنا إلى الطريق الأيسر والأسلم وهو القرآن ذاته: ((لابُدَّ لنا من أن نأخذ الأهداف والمقاصد من الكتاب ذاته، فإن مصنّف الكتاب أعرف بأهدافه وأعلمُ بمقاصـــده وغاياته))[1]، مع قطع النظر عن الطرق الأخرى كالبحوث العقليّة البرهانية التي توصلنا ــ هي الأخرى ــ إلى ذلك[2].

وإذا ما رجعنا إلى القرآن الكريم لنستقرئ تلكم الأهداف والمقاصد، فإنّنا سنجد عشـــرات، بل مئات الآيات المباركة التي ترسم لنا المقاصد الأساسيّة، لتزول الكتب السماويّة عموماً، والقرآن الكريم خصوصاً، باعتباره الكتاب المصدِّق والمقيِّم والأقوم والمهـــيمن. ولا يسع المجال لاستعراضها جميعاً، فنكتفي بأربع منها، والتي أكّد عليها مفسِّرنا في مؤلفاته وخطاباته:الآية الأولى:

(لقـــد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم لكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس...)[3].

وهـــذه الآيـــة تحدِّد ((الهدف الحقيقي)) من إنزال الكتب السماويّة، كما تحدِّد ((الوظيفـــة الأساســـيّة)) للرســـل، وبموجب هذه الآية ندرك ((أهم وظيفة للأنبياء

١- راجع : آداب الصلاة : ٢٩٩.

٢- نفس المصدر.

٣- الحديد : ٢٥.

والرسل)) ألا وهي ((إقامة النظام العادل في المجتمع وتنفيذ الأحكام)) وعدم الاكتفاء بنقلها وبيانها وتبليغها. وهكذا هو دور الفقهاء لأنهم ((أمناء الرسل))[1].

ويتســـاءل مفسِّرنا: ((هل يحفظ الإسلام إذا قَبّلنا القرآن ووضعناه فوق رؤوسنا، وتلونا آياته بصوت حسن آناء الليل وأطراف النهار؟!

أهكـــذا كان الرسول الأعظم (ص)؟! هل كان يكتفي بتلاوة القرآن وترتيله من غير إقامةٍ لحدوده، وتنفيذ لأحكامه))[2]؟!

ويلتفت إلى السياق (وأنزلنا الحديد فيه باس شديد)، فإن تلك المقاصد والأهداف لا بـــدَّ من تحقيقها بالحديد، لأن الذي لا يصغي إلى نداء العقل والمنطق لا مناص من استخدام منطق القوة معه[3].

الآيـــة الثانية: (كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه...)[4].

هـــذه الآيـــة ترسم ((الهدف الأساس)) لإنزال الكتاب مع الرسل: (ليحكم بين الناس)، منذ أن نشأ الاختلاف، وبدأ التناقض بين القوي والضعيف في الأرض، جرّاء تـــنوع التطلّعات، وتعقّد الحاجات، وتفاوت الإمكانات .. حيث ((أصبحت الحياة الاجـــتماعيّة بحاجـــة إلى موازين تحدِّد الحق، وتجسِّد العدل، وتضمن استمرار وحدة الـــناس في إطـــار ســـليم، وتصبّ كلَّ تلك القابليات والإمكانات التي نمّتها التجربة الاجتماعيّة، في محور إيجابي يعود على الجميع بالخير والرخاء والاستقرار.

في هذه المرحلة ظهرت فكرة الدولة على يد الأنبياء، وقام الأنبياء بدورهم في بناء الدولة السليمة، ووضع الله تعالى للدولة أسسها وقواعدها))[5].

١- راجع : الحكومة الإسلامية : ٦٦ ـــ ٧٣.

٢- راجع : الحكومة الإسلامية : ٦٦ ـــ ٧٣.

٣- آيين انقلاب اسلامي : ٤٥ (فارسي).

٤- البقرة : ٢١٣.

٥- الشهيد محمد باقر الصدر : الإسلام يقود الحياة : ٤ ـــ ٥.

وعـــلى أســـاس هذه الآية يفسِّر المرجع الشهيد محمد باقر الصدر نشوء الدولة تأريخياً، ويصفها بأنّها ((ظاهرة نبويّة)) وأنّها ((تصعيد للعمل النبوي بدأت في مرحلة معيّنة من حياة البشريّة))، ويرفض التفسيرات الأخرى كنظريّة القوّة والتغلّب، ونظريّة التفويض الإلهي الإجباري، ونظريّة العقد الاجتماعي وغيرها من النظريّات ..

وعلى ضوء هذه الآية أيضاً يحدِّد وظيفة الدولة التي تتمثّل بتطبيق شريعة السماء التي وازنت بين الفرد والمجتمع، ويرفض المذاهب الأخرى كالمذهب الفردي والمذهب الاشتراكي...[1].

إن الذي يغفل عن هذا المقصد الأساس لا يمكن أن يكون مفسِّراً واقعياً للقرآن، كما يرى مفسِّرنا، لأنه سيستغرق في الأحكام الفرديّة، والتشريعات الجزئيّة، بعيداً عن آفـــاق القرآن الاجتماعية، وأبعاده السياسيّة الثوريّة، كما يكون بعيداً عن مشكلات التطـــبيق والتجســـيد .. وبالـــتالي يكون أبعد ما يكون عن أجواء القرآن وأهدافه ومقاصده.

ولهـــذا ينعى مفسِّرنا الإمام على مَن يتبنى مقولة ((لا دولة في التشريع الإسلامي، ولا مؤسّســـات حكوميّة في الإسلام)) ويعتبر هذه المقولة ـــ التي راح يردِّدها بعض العلماء في أوساط الحوزات العلميّة ـــ جزءاً لا يتجزأ من المخطّطات الاستعمارية التي تستهدف إبعاد المسلمين عن التفكير في السياسة والحكم والإدارة[2]، وأنَّ ((ما نقاسيه الآن إنّمـــا هو من آثار تلك الدعايات المضللة التي انتهى بها أصحابها إلى ما يريدون، وأحوجتـــنا إلى بـــذل جهود كبيرة كي نثبت أنّ في الإسلام مبادئ وقواعد لتشكيل الحكومة والدولة))[3]!!

١- ن . م : ١٧.

٢- راجع : الحكومة الإسلامية : ١٨.

٣- نفس المصدر : ١٧.

الآيـــة الثالـــثة: (الحمـــد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً قيماً...)[1].

إنّ الصـــفة الأبـــرز للقرآن الكريم هي أنّه كتاب قيِّم، فيما تمثّله هذه الصفة من ((القـــيمومة)) أو مـــن ((القيام)) .. فعلى المعنى الأول يكون القرآن هو القيِّم على الحيـــاة، له القيمومة والهيمنة على ساحة الفكر والجهاد والحركة، لينشئ الأمة القائدة الشـــاهدة (كذلـــك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عـــليكم شـــهيداً)[2]، وعلى المعنى الثاني، يكون القرآن هو القائم على شؤون المجتمع والأمّة والحياة ليضع الأمّة القائمة الناهضة (ليقوم الناس بالقسط)[3].

وحـــتى يكون التفسير القرآني تفسيراً حقيقيّاً وواقعيّاً لا بدَّ وأن يأخذ هذه الصفة بنظر الاعتبار، لأنها تشكِّل الهدف والمقصد الذي من أجله نزل القرآن، وشرع الدين: (ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[4] (وذلك دين القيمة)[5] (ديناً قيماً)[6].

مـــن هـــذا المنطـــلق طرح المرجع الشهيد محمد باقر الصدر نظريّته في التفسير الموضوعي، وبلور تلك النظريّة التي كانت مطروحة من قبل، ورأى أن الموضوعيّة لا تكمـــن في الموضـــوع الواحد فحسب، بل في الواقع الموضوعي، لتبدأ علمية التفسير ((مـــن الواقع وتنتهي بالقرآن بوصفه القيِّم والمصدر الذي تحدّد على ضوئه الاتجاهات الربانيّة بالنسبة إلى ذلك الواقع)).

((ومـــن هـــنا تبقى للقرآن حينئذ قدرته على القيمومة دائماً، قدرته على العطاء المستجد دائماً، قدرته على الإبداع، لأن المسألة ــ هنا ــ ليست مسألة تفسير لفظ،

١- الكهف : ١ ــ ٢.
٢- البقرة : ١٤٣.
٣- الحديد : ٢٥.
٤- الروم : ٣٠.
٥- سورة البيّنة : ٥.
٦- الأنعام : ١٦١.

فـإن طاقـات التفسـير اللغوي ليست طاقات لا متناهية، بينما القرآن الكريم دلّت الروايات على أنّه لا ينفد، وصرّح القرآن بأن كلمات الله لا تنفد)).

ولذا يرى الشهيد الصدر (قدس) أنّ القيمومة الدائمة للقرآن، وحالة عدم النفاد لكـلماته ((تكمن في منهج التفسير الموضوعي، لأنّنا نستنطق القرآن، ولأنّ في القرآن عـلم مـا كان وعلم ما يأتي، ودواء دائنا، ونظم ما بيننا، وما يمكن أن نستشف منه مواقف السماء تجاه تجربة الأرض))[1].

وهـذه هي معجزة القرآن الكبرى التي هي أرقى من المعجزة البلاغية والأدبيّة .. والـتي يجـب أنْ يهتم بها المفسِّرون في واقعنا المعاصر .. ((لأن (الأعراب) في عصر صدور النص كانوا عاجزين عن إدراك جوانبه الأهم ومعاجزه الأعلى والأرقى. واليوم كذلـك لـن يدرك الذين هم في أفق إدراك (الأعراب) من هذه اللطيفة الإلهيّة، غير التركيـبات اللفظيّة والمحسنات البديعيّة والبيانيّة))[2]. الآية الرابعة: (قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين. يهدي به الله من اتّبَعَ رضوانه سُبُل السلام ويُخرجُهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم)[3].

حددت هذه الآية ثلاثة مقاصد لنزول الكتاب مترتّبة في سياقها بحسب تحقّقها .. فـإن في كُلّ مرتبةٍ من مراتب السلام خروجاً من دركةٍ من دركات الظلام .. حتى يصل الإنسان إلى طريق الإنسانيّة المستقيم[4]. إنّ الأنبياء كلّهم مبعوثون لإخراج الناس مـن الظلمات إلى النور: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات)[5].

١- الشهيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية : ٢٢ ــ ٢٣.

٢- الإمام الخميني : القرآن باب معرفة الله : ٤٣ (فارسي).

٣- المائدة : ١٥ ١٦.

٤- راجع : آداب الصلاة : ٣١٤.

٥- سورة البقرة : ٢٥٧.

إنّـــه الصـــراع التأريخي بين أولياء الله وأولياء الطاغوت .. ((هذان موضوعان متقابلان .. إخراج الأمة من الظلمات إلى النور، وهذا عمل الله عزَّ وجل، وفي المقابل جـــرّ الأمّـــة نحـــو الظـــلمات، وهذا عمل الطاغوت))[1]. إن ((الجهل)) ظلمة، و ((المعصـــية)) ظلمة، و ((التبعية للغرب، والانبهار به)) ظلمة، بل من أشدِّ الظلمات ((لأن جميـــع مشـــاكلنا ومصائبنا تكمن في أنّنا فقدنا أنفسنا، وجلس غيرنا مكاننا، ونسينا مفاخرنا، وقضينا على كرامتنا واستقلالنا ووطنيّتنا)). إنّ ((كلّ هذه ظلمات، والطـــاغوت هـــو الـــذي أخرجنا من نور الاستقلال والوطنيّة والإبداع العلمي إلى ظـــلمات التـــبعيّة والذيليّة والشعور بالدونيّة))، بيد أن أكبر هذه الظلمات وأحلكها وأخطرها هي ظلمة ((الأنانيّة))، لأنها ((العدو الأسوأ من كلّ الأعداء، والوثن الأكبر مـــن كـــلّ الأوثان، بل هي أمُّ الأوثان، وما لم يحطِّم الإنسان هذا الوثن لا يمكن أن يصبح إلهياً، لأنّه لا يمكن الجمع بين الله وبين الوثن، وبين الأنانيّة والإلهية))[2]. والأنانيّة هـــي ((أمُّ المصائب)) ذلك لأن ((جميع الحروب في هذا العالم ناشئة من الأنانيّة، إنها حروب الأنانيّات))[3]، ((لقد بعث كافّة الأنبياء، وأنزلت كافّة الكتب السماويّة، من أجـــل إخـــراج الإنسان من معبد الأصنام هذا، وتحطيمها، وتحويله إلى عابد لله))[4]، وعندما يخرج من ظلمات الأنانيّة ((يُصبح عاملاً لله، مقاتلاً في سبيل الله، قائماً لله)). إنَّ المقصـــد الأكبر لتنزل القرآن هو ((صناعة الإنسان)) و جعله ((إنساناً))، ليتحول ((من إنسان بالقوّة إلى إنسان بالفعل)).

وانطلاقاً من هذه الحقيقة الكبرى، يعتبر مفسِّرنا أنَّ المقاصد والأهداف الأخرى هـــي في خدمـــة ذلك المقصد الأرقى، حتى إقامة الحكومة، وتأسيس الدولة، هي من

١- راجع : مختارات من أقوال الإمام الخميني : ١ : ١٠٩ ــ ١١٤ (تفسير آية {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أخرج قومكَ من الظلمات إلى النور..} إبراهيم : ٥.

٢- تفسير آية البسملة : ٤٦.

٣- نفس المصدر : ٦.

٤- نفس المصدر : ٤٨.

أجـــل تلك الغاية القصوى: ((إنَّ الأنبياء لم يأتوا للحكومة بذاتها، ولا لإدارة وتسيير الأمور الدنيويّة، فإنّ للحيوانات أيضاً دنيا يسيِّرون شؤونها ـــ وإنْ كانت إقامة العدالة الاجـــتماعيّة بأيدي الأنبياء ـــ ولكنَّ الغاية ليست كلّ ذلك، بل إنَّ كلّ ذلك وسائل لإيصال الإنسان إلى المراتب السامية، وهذه هي غاية بعثة الأنبياء))[1].

١- نفس المصدر : ١٠٠.

الفصل الثاني

تراث الإمام التفسيري

لقـــد تـــرك لنا الإمام (قدس) تراثاً تفسيرياً ضخماً، إذا ما جمعناه ضمَّ مجلدات عديدة، ويمكننا أنْ نعطي لمحة سريعة عن جهوده التفسيرية ومواطن بحوثه القرآنيّة، من خلال النقاط التالية:

أولاً : الممارسة التفسيريّة

من المعلوم أنَّ الإمام (قدس) لم يترك لنا موسوعة تفسيرية كاملة للقرآن الكريم، رغـــم شوقه الكبير للقيام بهذه المهمة الصعبة المقدّسة، إذ لم تكن لديه الفرصة للقيام بذلك.

ففـــي كتابه (آداب الصلاة) ــ الذي ألّفه (١٣٦١هـــ) ــ نجد أملاً عزيزاً كان يـــراوده: ((إن مـــن آمالي ــ أنا الضعيف العاجز ــ تصنيف كتاب بشأن القصص القـــرآني وحـــلّ أسرارها ــ بتوفيق الله ــ والإشارة إلى أساليبها في التعليم والتربية بالقدر الميسور، وإن القيام بهذا الأمر يُعد أمنيةً ساذجة وخيالاً باطلاً لمن هو مثلي))! وســـبب اخـــتيار القصص القرآني يكمن في أنه ((يمثل باباً من أوسع أبواب المعارف والحكم، وأعظم مداخل السعادة...))[١].

بيـــد أنـــه في نفس الكتاب (آداب الصلاة) عقد باباً كاملاً ورائعاً وهو (الباب الرابع) يبحث فيه ــ خلال ٢٢٩ صفحة ــ آداب قراءة النص القرآني وشروطها، ما يعطي تفسيراً مفصّلاً وعميقاً لثلاث سور قرآنية قصار (الفاتحة ، والتوحيد ، والقدر)، ويعتـــبره ((من أعز أبواب)) كتابه، حيث يتضمن هذا الباب (مصباحين)، المصباح الأول في ((الآداب العامة لتلاوة القرآن)) يتألف من ستة فصول، بحث (أدب التعظيم) في الفصـــل الأول، و (أدب المقاصـــد) في الفصل الثاني، و (أدب التعلم والتعليم) في الفصل الثالث، و (أدب رفع الحجب والموانع) في الفصل الرابع، و (أدب التفكر) في الفصل الخامس، وجاء الفصل السادس والأخير حول (أدب التطبيق).

١- آداب الصلاة : ٢٩٢.

بيــنما يتألف (المصباح الثاني) والذي هو تحت عنوان (آداب تلاوة القرآن) من ســبعة فصول، جاء الفصل الأول حول (آداب القراءة)، والثاني (آداب الاستعاذة)، والثالث (أركان الاستعاذة)، والرابع (آداب التسمية)، أما الفصول الثلاثة الباقية فقد خصصت لتفسير السور الثلاث المذكورة.

ومن خلال هذا الباب الواسع عموماً، والفصول الثلاثة الأخيرة خصوصاً نستطيع أن نتعرّف على أهم المعالم الأساسية في تفسير الإمام.

- لقد مارس الإمام مهمة التفسير القرآني على نطاق واسع، من خلال تفسيره في مؤلفاته الأخرى، حيث تناول المئات من الآيات بحسب موضوعاتها في كتبه المتنوعة، كمـــا في مؤلفاتـــه العرفانية (سر الصلاة، وشرح دعاء السحر)، والأخلاقية (الجهاد الأكبر)، والأخلاقية العرفانية (الأربعون حديثاً)، والفقهية (المكاسب المحرمة –مجلدان، وكـــتاب الـــبيع –٥ مجـــلدات)، والسياسية الفقهية (الحكومة الإسلامية، وكشف الأســـرار)، والأصولية (مناهج الوصول إلى علم الأصول -مجلدين، وأنوار الهداية في التعـــليق عـــلى الكفايـــة، وتهذيب الأصول (٣ أجزاء) وهو تقريرات تلميذه الشيخ السبحاني).
- أمـــا على صعيد خطاباته السياسية والاجتماعية والتربوية، والتي بلغت ١١٢٦ خطابـــاً، فإنها تضمنت مادّة تفسيريّة ثرّة وقيّمة، تناول فيها الكثير من الآيات المباركة بصورة مسهبة مفصّلة تارة ومختصرة مقتضبة أخرى.
- بُعيـــد عودتـــه المظفـــرة، وانتصار الثورة، وتأسيس الدولة المقتدرة، استجاب للطلبات الملحّة بأن يبدأ في إعطاء دروس تفسيريه أسبوعية عبر الأجهزة المرئيّة وذلك في تـــاريخ ٢ / صـــفر / ١٤٠٠هــ، فتناول آية البسملة، وقد فسّرها طوال خمسة

دروس قيّمـــة، بصورة دقيقة ومفصّلة، مراعياً المستوى الجماهيري العام. وقد طبعت الدروس الخمسة في كتاب بعنوان (تفسير سورة الحمد)[1].

وقد كان في النية أن تستمر تلك الدروس، كما يذكر في درسه الأول: ((قررت أن أتـــناول مـــرة في كل أسبوع السورة الأولى في القرآن وإحدى السور الأواخر، وبصورة مختصرة، إذ لا يتسنى الوقت للتفصيل، لا لي ولا للآخرين))[2]، بيد أنَّ ظروفاً قاهـــرة ـــ مـــنها المرض ـــ حالت دون استمراره بتلك الدروس التفسيريّة الرائعة، فكانت خسارتنا فادحة.

* في كتاب بعنوان (القرآن باب معرفة الله) جمعت نظرات الإمام للقرآن الكريم، مـــن مؤلفـــات وخطابات عديدة. ومع الأسف فقد جاءت الترجمة إلى اللغة العربية ركيكة للغاية، تشي بمدى ضعف المترجم باللغتين العربية والفارسية معاً[3]!!

ثانياً : المنهج التفسيري المنقّح

يمتـــلك مفســـرنا الإمام منهجاً تفسيرياً واضحاً ومتيناً، قد نقّح أصوله، وأثبت قواعده، وأتقن مسائله، في جميع أبعاده ومختلف اتجاهاته.

والذي يطالع مؤلفاته الأصولية على مستوى ((البحث الخارج))، سواء في كتاب (تهذيـــب الأصـــول) أو في كتابه الأصولي الذي كتبه بخط يده، والذي صدر مؤخراً (عام ١٤١٤هــ) بعنوان (مناهج الوصول إلى علم الأصول)، يجد مدى الدقة والمتانة والعمـــق في تنقيح المسائل الأصوليّة التي لها علاقة مباشرة بالتفسير القرآني، واستنباط الأحكـــام من الآيات المباركة. فقد أعطى موقفه العلمي في جميع تلك المسائل سواء

١- ترجمت إلى اللغة العربية بعنوان: تفسير آية البسملة : دار الهادي : بيروت عام ١٣١٢هــ ــ ١٩٩٢م.

٢- تفسير آية البسملة : ١٣.

٣- ومن الغريب أن هذا الكتاب بترجمته السيئة صدر من قبل دارين معاً في بيروت : دار المحجة البيضاء، ودار ومكتبة الرسول الأعظم (ص)، عام ١٩٩٣م، من دون الإشارة إلى الكتاب الأصلي أولاً! ومن دون الهوامش التي تشير إلى المصادر ثانياً!!

كـــانت على صعيد الأدلّة اللفظية كالعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والحقيقة والمجاز، والمشترك، وحجية الظهور، ومفاد هيئة الأمر والنهي ومادتيهما، وحجية خبر الواحـــد .. إلى مـــا هنالك من القواعد التي هي في صميم المنهج التفسيري، أو على صـــعيد الأدلّة العقليّة والأصول العمليّة، حيث نجده ـــ مثلاً ـــ يتبنى رأياً في (المجاز) مخالفـــاً لـــلرأي المشهور، كما يذهب إلى جواز ((استعمال اللفظ في أكثر من معنى واحـــد))[1]، وأنّ المشتق ((حقيقة في المتلبّس بالمبدأ)) وانّ استدلال الإمام (ع) بقوله تعـــالى (لا يـــنال عهدي الظالمين)[2] على عدم لياقة من عبد صنماً لمنصب الإمامة، لا يصـــلح دليـــلاً على أنّ المشتق وضع للأعم، وذلك لأن ((مناسبة الحكم والموضوع وسياق الآية يشهدان بأنّ الظالم- ولو آناً ما- والعابد للصنم- ولو برهة من الزمان- غير لائقين لها))[3] أي: للإمامة والزعامة. وبهذه المناسبة يحذّر من الدخول في المباحث العقـــليّة الفلسفيّة في مسائل لغوية عرفية: ((فقد وقفنا على أخطاء كثيرة من الأعاظم صدرت من تلك الناحية))[4].

أمـــا على صعيد الآيات التي تتعلق بالمعارف الإلهية والمطالب العقليّة، فقد امتلك مفسّرنا أدوات المنهج وأصوله وقواعده المبتنية على القرآن والبرهان والعرفان، إضافةً إلى المـــنقول مـــن روايات وأدعية أهل البيت عليهم السلام لأنه يرى أنّ في أدعيتهم عليهم السلام كنوزاً ومفاهيم تكون بمثابة البيان والتفسير للآيات القرآنية، وهذه من خصائص المنهج التفسيري عند الإمام.

١- الإمام الخميني : مناهج الوصول إلى علم الأصول : ١ : ١٠٥.

٢- سورة البقرة : ١٢٤.

٣- مناهج الوصول : ١ : ٢١٥.

٤- تهذيب الأصول : ٣ : ١٣٩.

ثالثا : النظرات الكلية والاتجاهات الأساسية

لم يكتف مفسرنا بممارسة التفسير، ولا بتنقيح أصوله وأدواته فحسب، بل أعطى لـــنا نظرات واعية ورائدة للقرآن الكريم وحقيقته العلويّة والتنزيليّة، وأسهبَ في تحديد مقاصده الكليّة، وأهدافه الكبرى، وأبعاده الأساسيّة، كما أعطى نظراته النقدية لمسيرة التفسير القرآني، شخّص من خلالها أمراض المفسّرين وأخطاءهم، عندما لم يجعلوا تلك المقاصد والأهداف والأبعاد نصب أعينهم.

لقد شجب الإمام أصحاب البعد الواحد، والاتجاه الفارد، الذين يحشرون الآيات المـــباركة ضمن نطاق محدود، وزاوية حرجة، في الوقت الذي يضيّعون فيه الاتجاهات والأبعـــاد الأخـــرى، بـــل قـــد يصـــل ضيق الأفق ببعضهم إلى مرحلة الاستنكار والاســـتخفاف بتلك الأبعاد وأصحابها، وبالتالي يكونون مصداقاً لقوله تعالى: (كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون)[1].

ولهـــذا تنوعت أبعاد التفسير الخميني للقرآن بتنوّع مقاصده وأهدافه ومنطلقاته، حتى إنك ترى اجتماع البعد العرفاني بالبعد السياسي، والبعد الثوري بالبعد الأخلاقي التربوي، وهذه الشمولية والأبعاد المتعددة تُعدّ من أبرز خصائص التفسير عند الإمام، والتي لم أعثر عليها بهذه الصورة المتألقة عند أحدٍ من المفسرين المتقدمين أو المعاصرين. كما سنرى إن شاء الله.

رابعًا : التفسير والتجسيد

لم يكـــتف مفسّـــرنا بتفسير القرآن بأبعاده المتعددة، واتجاهاته الفاعلة ومنطلقاته الـــرائدة .. بل إنّه يكاد يكون المفسِّر الوحيد في التاريخ الذي يحاول بكلّ ما أُوتي من قـــوة أن يجعـــل القرآن حيّاً فاعلاً في الساحة السياسيّة والاجتماعيّة .. لتعود للكتاب العزيـــز السيادة والحاكمية والقيموميّة، بعد إقصاء دام قروناً متطاولة، وبعد مؤامرات

---

١ ـــ سورة الروم : ٣٢.

آلت إلى أن يُتلى القرآن في المقابر وعلى الأموات فحسب، بعيداً عن الأحياء وميدان الحياة.

ولهـذا فقد دعا في وصيته العباديّة السياسيّة إلى ما أسماه بضرورة ((إنقاذ القرآن مـن المقابـر))، ليُقدّم ((أعظم وصفة إنقاذ للبشرية))، وأعلن فخره واعتزازه بالذين عـانوا السـجن والتشريد ((على طريق تطبيق القرآن الكريم، وإقامة حكومة العدل الإلهـي باعتـبارها واحداً من أبعاده))[1] كما أعلن افتخاره بالإدارة الجماهيريّة الحرّة والأبيّة التي تُريد تطبيق أهداف القرآن وتجسيد غاياته ومقاصده.

لقد حوّل مفسّرنا الإمام مصطلحات القرآن، التي أصبحت بفضل التخلّف بعيدة عـن أجـواء نزولها، حولها إلى مصطلحات سياسية اجتماعية ثورية، تتخذها الأمّة شعارات تحدد لها معالم الصراع، وطبيعة الأعداء، وهوية المعركة.

كـان الـناس يعتقدون أن الشياطين تقبع في عالم الجن فحسب، رغم تلاوتهم للآيـات التي تصرّح بأنسيّة الكثير من الشياطين .. وحتى الذين كانوا يدركون تلك الحقيقة لم يكن يدور في خلدهم أنّ هناك شياطين على مستوى محلّي وأقليمي ودولي عـالمي، يحاولون جميعاً عرقلة مسيرة التكامل البشرية والانعتاق والحريّة، ويسعون ليل نهار لاستضعاف الشعوب وقهرها واستعمارها، تطبيقاً للمقولة الإبليسيّة (لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم)[2].

وكـان الـناس يقرأون الآيات التي تتحدث عن ((الطاغوت)) وضرورة اجتنابه والكفـر بـه.. إلا أنهم لم يكونوا ملتفتين إلى الطواغيت الكبار الدوليين من اليسار واليمين.

لقـد تجسدت أبعاد القرآن الأساسية التي تحدّث عنها الإمام في تفسيره إلى أبعاد واقعيّـة عمليّة تمشي على الأرض، وتكره أن تقبع في بطون الكتب التفسيريّة وعلى

---

١ ـ وصية الإمام.

٢ ـ الأعراف : ١٦.

رفوف مغبرّةٍ عالية، بل جعلها تخوض الصراع المرير وعملية التغيير، وتُرفع كشعارات سياسية تهتف بها الجماهير المليونية: الطاغوت ، المستضعفين ، المستكبرين ، الشياطين، لا شرقية ولا غربية، وغيرها من المصطلحات القرآنية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من عقلية المجتمع الإسلامي ووعيه ولغته.

وعـــندما كان مفسرنا في منفاه الأخير في نوفل لي شاتو في باريس إبّان تصاعد الثورة الإسلامية وقبيل الانتصار، سئل: ماذا تعني بالدولة الإسلامية؟ وما هي سياسة هذه الدولة؟ فأجاب بهدوء مذهل: ((إنها: كالزيتونة التي وصفها القرآن لا شرقية ولا غـــربية))! وقد عقّبت مجلة ((المجالس)) على ذلك بقولها: ((وقد يمضي أكثر من يوم على كارتر وبريجنيف قبل أن يدركوا هذا المعنى. وقد يحتاج الأربعة الكبار ((المؤتمرون في قمة غواديلوب)) إلى أكثر من يوم سابع للتبحر في هذا كلّه))[١].

---

١ ـــ مجلة المجالس : العدد : ٤٠١.

الفصل الثالث

الاتجاهات والابعاد

إنّ أبـــرز مـــا يمتاز به التفسير الخميني للقرآن هو الأبعاد المتعددة، والاتجاهات المتنوعة، تبعاً لتعدد مقاصد القرآن وتنوع أهدافه ومنطلقاته، فقد اجتمع البعد العرفاني بالسياسي، والبعد الثوري بالأخلاقي التربوي.

وقد شجب مفسرنا الإمام أصحاب البعد الواحد، والاتجاه الفارد، الذين ينكرون الأبعاد الأخرى، ويفرحون بما لديهم من بعد بحسب اختصاصهم.

إنّ القـــرآن كمـــا هو كتاب ((صناعة الإنسان))، فإنّه كذلك ((كتاب دعوة وإصـــلاح مجتمع)) و ((كتاب صراع وحرب مع الطواغيت والقوى المستكبرة)) وإنه ((كتاب إقامة حكومة العدل الإلهي))[1]. وكما أنّ ((الذنوب والمعاصي)) ظلمات أراد الله أنْ يخرجـــنا مـــنها إلى النور بواسطة الكتاب: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظـــلمات إلى النور)[2] كذلك ((التبعية للغرب)) تعدُّ من أكبر الظلمات التي تاه فيها أوليـــاء الطـــاغوت، الذيـــن انبهروا بالغرب فاتخذوه قبلتهم، ففقدوا بذلك أنفسهم وعقولهم وكرامتهم:

((إن جميـــع المـــنكرات ظلمات .. وجميع التشبثات بالغرب ظلمات. وهؤلاء المنبهرون بالغرب تاهوا في الظلمات وإن أولياءهم الطاغوت))[3].

عـــلى ضوء هذه النظرة الشمولية المتعدّدة الأبعاد للقرآن الكريم يشجب مفسّرنا أصحاب البعد الواحد ـــ كما ذكرنا ـــ ويرفع شعاراً بخصوص ذلك مفادهُ: ((الجاهل بعـــلم لا يحـــق له التكذيب والتطاول والطعن)) ذلك لأنّه ((تكذيب لشيء من دون تصوّر)) وهو ((أسوأ حالاً وأعظم قبحاً)) من التصديق دون تصوّر! ولهذا ((لا ينبغي للإنسان إذا جهل علماً أن يكذّبه ويتطاول على صاحبه))[4].

---

١ ـــ راجع كتاب : القرآن باب معرفة الله.

٢ ـــ سورة البقرة : ٢٥٧.

٣ ـــ مختارات من أقوال الإمام الخميني : ١ : ١١٠.

٤ ـــ الأربعون : ٤٢٢.

لماذا كان العداء بين علماء الفلسفة والعرفان والأخلاق والفقه سائداً ومستحكماً دائماً، والافتراء بينهم متبادلاً؟

لمـــاذا يتهم بعضُ الفقهاء الفلاسفة والعرفاء بالكفر والزندقة، ويعتبرون معارفهم مجــرد اصطلاحات حالمة لا أساس لها من الواقع، بل هي أسماء لا مسمّيات لها إلاّ في خيال أصحابها وأوهام رجالها؟

ولمـــاذا يســـخر بعـــض الفلاسفة وأصحاب العرفان بطائفة الفقهاء، ويتهمونهم بالقشرية والعلوم الظاهرية؟

ولماذا يستهزئ بعض علماء الأخلاق بطائفة الفلاسفة والحكماء؟

أي طائفة هي المحقة من هذه الطوائف المتنوعة المتصارعة؟

إنّهـــا أســـئلة طالمـــا أثير حولها النقاش، واحتدم في الجواب عليها الجدال. ومن الطريف أن كلَّ طائفةٍ تخرج من ميدان الصراع فرحةً منتصرة!.

يرى مفسّرنا الإمام أن جميع هؤلاء خاسرون منهزمون، ولا يوجد فيهم منتصر، لأنهـــم جميعاً على الباطل، ولهذا فإنّ ((أصحاب الطوائف الثلاث صادقون في تكذيب كُلٍّ منهم الآخر))[1]!!

إن عـــلّة هـــؤلاء جميعاً تكمن في الجهل بأبعاد القرآن الكريم ومراتب العلوم التي يتضـــمنها المـــنهج القرآني، فاكتفى كُلُّ واحد منهم ببعد واحد، واقبل بوجهه عليه، وأصـــابه العمـــى عن رؤية الأبعاد الأخرى، فصار عارفاً به، أُمّياً جاهلاً في سواه .. فأصبح بحق مصداقاً لقوله تعالى (كُلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون)[2].

يقـــول الإمام: ((إن أصحاب هذه الطوائف الثلاث، الذين يعتقدون هذه الآراء الـــثلاثة الباطـــلة، لمحجوبون عن المقامات الروحانية والنشآت الإنسانية و لم يتدبّروا بصـــورة صحيحة في علوم الأنبياء والأولياء. ولهذا كان العداء بينهم سائداً، والافتراء

---

١ ــ نفس المصدر : ٤٢١.

٢ ــ سورة الروم : ٣٢.

متبادلاً، وكان أحدهم يرمي الآخر بالباطل، مع أنهم جميعاً على الباطل))[1]. ذلك لأنّ هـــذه العلوم مترابطة .. متكاملة .. وأنها ((حقيقة واحدة ذات مظاهر ثلاثة)). ولهذا يعطي نصيحته لهذه الطوائف المتنازعة المتصارعة، متمثلة الحديث الشريف: ((رحم الله امـــرأً عـــرف قدره، ولم يتعدَّ طوره)). لأنه قد شخّص السر وراء هذا الاستخفاف المتـــبادل، بأنّـــه نتيجة للكبر الذي من أهم عوامله ((ضيق الأفق، وانحطاط القابلية، وضـــعف العقل)) .. فتتوهم كلُّ طائفةٍ كمالاً زائفاً لنفسها، دون غيرها، فإنَّ للكبر أســـباباً عديـــدة ((تـــرجع كلها إلى توهم الإنسان الكمال في نفسه، مما يبعث على العجب الممزوج بحب الذات، فيحجب كمال الآخرين، ويراهم أدنى منه)). وهذا قد يحصـــل بين علماء العرفان النظري الذين لا يملكون ((شيئاً من المعارف الإلهية، سوى حفـــنة من المفاهيم التي لا تعدو جميعاً أن تكون حُجُباً تغطي الحقائق، أو مطبّات في الطريق، ومجموعة من المصطلحات ذات البريق الخادع))[2]. كما قد يحصل بين الفقهاء .. فينظرون إلى سائر الناس بعين الاحتقار والاستهزاء .. ويرى أحدهم نفسه مصداقاً للآية (لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون)[3].

وهكذا تجد بين الحكماء من ((ينظر إلى سائر الناس بعين التحقير، ولا يعتبر علوم الآخرين علوماً))[4].

ولهـــذا يحـــذر الإمام من رفض بعض الاتجاهات التفسيرية بسبب عدم المطابقة لـــلذوق، فإن لكلِّ علم أصلاً، ولكلِّ طريق سالكاً: ((رحم الله امرأً عرف قدره ولم يتعدّ طوره))[5].

---

١ ـــ الأربعون : ٤٢٠ ـــ ٤٢١.

٢ ـــ الأربعون : ١١٥.

٣ ـــ سورة الأنبياء : ٢٣.

٤ ـــ الأربعون : ١٠٧.

٥ ـــ نفس المصدر: ٥١٥.

قصّة العنب والأصدقاء الثلاثة

وفي مقدمـــة درسه الخامس ــ من الدروس التفسيرية التجزيئية التي بدأها بعيد انتصار الثورة الإسلامية ــ نبّه الإمام إلى ((نقطة مهمة وضروريّة))، وهي علة وقوع الاخــتلاف ــ أحياناً ــ بين أهل الرأي والعلم، فقد عزا ذلك إلى ((أنهم لا يعرفون لغة بعضهم . لأن لكل طائفة منهم لغة خاصة بها)) وذكر قصة ظريفة لتوضيح ذلك، وهـــي ((قصـــة العنب بين أولئك الأصدقاء الثلاثة الذين كان أحدهم عربياً والآخر فارسياً والثالث تركيا. فقد كانوا يتحاورون حول ما يعدّونه من طعام لوجبة الغداء، فقـــال الفارســـي ليكـــن (أنكور) وقال العربي: كلا ليكن طعامنا (عنباً)!، فأجاب الـــتركي: لا نريد هذا ولا ذاك .. بل لنأكل (أوزوم)!!))[1] يعلق الإمام: ((لقد وقع الاختلاف بين هؤلاء لكونهم لا يعرف أحدهم لغه الآخر، وحينما ذهب أحدهم وأتى بالعنب عرف الجميع أنّ مقصدهم واحد))[2].

الأبعاد الثلاثة في التفسير

ومن خلال التراث التفسيري الضخم الذي تركه الإمام، ونظراته الرائعة للقرآن، وتحديـــده لمقاصده وأهدافه، فإننا يمكن أن نستخلص ثلاثة أبعاد واتجاهات بارزة في التفسير:

البعد الأول: العرفاني العقائدي.

البعد الثاني: السياسي الثوري.

البعد الثالث: الأخلاقي التربوي.

---

١ ــ معنى (انكور) و (اوزوم) العنب، بالفارسيّة والتركيّة.

٢ ــ تفسير آية البسملة : الدرس الخامس : ١٠٣ ــ ١٠٤.

البعد الأول : العرفاني العقائدي

يرى مفسّرنا أن الإعجاز الأكبر للقرآن الكريم ، يكمن في ((العرفان))، حيث إنّ ((القرآن الشريف قد جمع من لطائف التوحيد وحقائقه وسرائره ودقائقه ما تتحيّر فيه عقـول أهـل المعرفة. وهذا هو الإعجاز العظيم لهذه الصحيفة النورانية السماوية))، وليس وجوه الإعجاز الأخرى من ((حسن التركيب، ولطف البيان، وغاية الفصاحة، ونهايـة الـبلاغة، وكيفيّة الدعوة، والإخبار عن المغيبات، وإحكام الأحكام، وإتقان التنظيم، والعائلة وأمثالها))، وإن كان ((كل واحد منها باستقلاله إعجازاً فوق الطاقة، وخـرقاً للعادة))[1]. وذلك لأنه يرى أنّ المقصد الأول والهدف الأساس الذي نزل من أجله القرآن هو ((إنقاذ المسجونين في سجن الدنيا المظلم، وخلاص المغلولين بأغلال الآمـال والأمـاني، وإيصالهم من حضيض النفس والحيوانية إلى أوج الكمال والقوّة الإنسـانيّة، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين، بل الوصول إلى مقام القرب، وحصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم))[2].

ولهذا فإنّ كتاب التفسير لابدّ من أن يكون كتاباً عرفانياً بالدرجة الأولى، يجسّد المقصـد الأول والأسـاس لـلقرآن الشريف. والمفسّر الذي يغفل عن هذا المقصد والمقاصـد الأخرى الأساسيّة لا يمكن أن نعدّه مفسّراً .. من هذا المنطلق صرّح الإمام ــ كما ذكرنا سابقاً بأنّه ((لم يكتب إلى الآن التفسير لكتاب الله)) ذلك ((لأنّ معنى التفسـير ــ على نحو كُلّي ــ هو أنْ يكون شارحاً لمقاصد الكتاب المفسَّر، وتكون مهمة الناظر إلى بيان منظور ومراد صاحب الكتاب. فهذا الكتاب الشريف الذي هو بشـهادة من الله كتاب الهداية والتعليم ونور طريق سلوك الإنسانية، يلزم للمفسّر أن

---

١ ــ الآداب المعنوية : ٤١٨.

٢ ــ نفس المصدر : ٣٢٣.

يعلّم المتعلمَ، في كُلّ قصةٍ من قصصه بل في كُلّ آيةٍ من آياته، جهة الاهتداء إلى عالم الغيب، وحيثيّة الهداية إلى طريق السعادة، وسلوك طريق المعرفة الإنسانية))[1].

وفي معرض تفسيره لسورة التوحيد (الإخلاص) يقول الإمام: ((ولعمر الحبيب إنّ هذه السورة الشريفة من الأمانات التي عجزت عن حملها سماوات الأرواح، وأراضي الأشباح، وجبال الانيات، وأشفقن منها، ولا يليق بحملها إلاّ الإنسان الكامل، الذي تجاوز حدود الإمكانية وصار مجذوباً وبلا حواس، ولكن مع ذلك فإنّ هنا بشارة تقرُّ بها عيون أهل آخر الزمان، وتعطي الاطمئنان لقلوب أهل المعرفة، وهي الحديث الذي في الكـــافي الشريف، قال: ((سئل علي بن الحسين (ع) عن التوحيد فقال: إنّ الله ـــ عـــز وجلّ ـــ عَلِمَ أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون، فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحـــد) والآيـــات من سورة الحديد إلى قوله (وهو عليم بذات الصدور) فمن رام وراء ذلك فقد هلك؟))[2].

ولهـــذا فإنّـــه بخصوص قوله تعالى من سورة الحديد (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) يقول: ((أقسم بحياة الحبيب أنّه لو لم تكن لبيان حقيقة كتاب الله الكريم غير هذه الآية الشريفة، لكفت ذوي العقول))[3].

إن الحجـــر الأساس في ثورة الإمام الخميني وقيامه ونهضته هو ((العرفان)) الذي أوصـــله إلى درجة الفناء في الله .. بعد أن قطع منازل السلوك، فانكشفت له حقائق الأشـــياء وكمالاتها، لينقذ الأمة، ويأخذ بأيديها في السلوك إلى الله، والسفر العرفاني، متخلّصةً من كُلّ عقبات وأشواك الطريق((الشياطين)). فالشيطان الرجيم ((هو شوكة طـــريق المعـــرفة، ومـــانع الســـير والســـلوك إلى الله)). (لأقعـــدن لهـــم صراطك

١ ـــ نفس المصدر : ٣٢٣.

٢ ـــ نفس المصدر : ٤٦٥.

٣ ـــ الأربعون : ٢٢٧.

المســتقيم)[1]،((وإنّ عــبقريّة إبليس)) تكمن في صدِّ الإنسان والإنسانية ومنعها بأية وسيلة ممكنة من العروج إلى الكمالات، وطي المنازل، والوصول إلى المدارج.

والشيطان قد يكون جنيّاً أو إنسياً (شياطين الإنس والجن)[2] (من الجنّة والناس)[3]، والإنســي قــد يكون فرداً طاغوتاً أو دولة طاغوتيّة .. ولهذا فإنّ تسمية أمريكا بـــ (الشيطان الأكبر) لم يكن تعبيراً مجازياً .. بل هو تعبير حقيقي قرآني[4].

وإنّ قولنا (اهدنا الصراط المستقيم) في سورة الحمد، التي نرددها كُلّ يوم مرات عديدة، يمثّل الرفض المطلق لكلّ الطواغيت الذين يصدّون عن الصراط المستقيم[5].

من هذا المنطلق وحده يمكننا أنْ ندخل البيوت من أبوابها لفهم شخصية مفسّرنا الإمــام، وما تتمتع به من قوّة وبأس وحزم وشجاعة وصرامة واستقامة، كما يمكننا الدخول السليم إلى معرفة أبعاده المتعددة والمتنوعة بتنوّع أبعاد تفسير القرآن الكريم.

إنّــه أولاً وقــبل كُلّ شيء ((رجل عرفان)) قبل أن يكون رجل سياسة محنّك، وفقاهــة مجــتهد، ودولة وثورة، أو حتى قبل أن يكون رجل فلسفة وحكمة. ولهذا فكثيراً ما كان يوصي بقوله: اكتب على قلبك بمداد العقل ـــ مهما قاسيت في ذلك وعــانيت ـــ أنْ ((لا مؤثر في والوجود إلا الله))[6]. ومن دون ذلك لا قيمة للبرهان الفلســفي مهما كان متيناً وللعلم البرهاني مهما كان مبنياً بل ((لعلّ أصحاب البرهان العقلي والاستدلال الفلسفي هم أكثر من غيرهم عرضة لشباك إبليس والنفس الخبيثة ((فخشبية هي قدم أصحاب الاستدلال))، ولن تصبح قدم البرهان العقليّة ((روحانية إيمانية)) ما لم تنتقل ((من أُفق العقل إلى مقام القلب))[7].

---

١ ـــ سورة الأعراف : ١٦.

٢ ـــ سورة الأنعام : ١١٢.

٣ ـــ سورة الناس : ٦.

٤ ـــ راجع : الآداب المعنوية : ٣٧٣.

٥ ـــ مختارات : ٢ : ١٢٨.

٦ ـــ راجع : الأربعون : ٧٥، ٢٥٠، الآداب المعنوية : ٢٧٧، وصية الإمام إلى أحمد.

٧ ـــ وصية الإمام لابنه أحمد.

العرفان بين العزلة والثورة: الصحو بعد المحو

مـــن المعـــروف أنّ العرفان يؤدي إلى العزلة عن المجتمع، والابتعاد عن الأحداث السياسيّة والاجتماعية .. فضلاً عن صناعتها وريادتها .. وهذا الأمر صحيحٌ في الجملة لا بالجملة .. ذلك لأن في السلوك إلى الله درجات ومنازل ومقامات، إذا ما اجتازها الســـالك فقد تؤدي به بعيداً عن المجتمع والناس والأحداث .. وقد شخّص مفسّرنا الإمام هذه الحالة بتقسيمه أصحاب السلوك المعنوي والسفر العرفاني وانطلاقاً من قوله تعالى (من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ..)[1] إلى طائفتين:

الطائفة الأولى: الأولياء الفانون المجذوبون، أولئك الذين أدركهم ((الموت)) بعد إتمـــام الســـفر إلى الله، فيـــبقون في حالة ((الفناء التام)) و ((المحو الكلي)) و ((المحق المطلق)) .. لا يعرفهم أحدٌ ولا يرتبطون بأحد.

الطائفـــة الثانية: الراجعون إلى أنفسهم بعد تمامية السير إلى الله، وفي الله، الذين حصـــلت لهـــم ((حالة الصحو بعد المحو)) فعادوا إلى المجتمع، من أجل تكميل العباد وتعمـــير الـــبلاد، وتخليصهم من الطاغوت النفسي الداخلي والسياسي والاجتماعي الخارجي[2].

لقـــد شمـــلت الطائفـــة الثانية العناية الإلهية فأرجعتهم إلى أنفسهم، وعاد إليهم وعيهم، فعادوا إلى عالمهم بأنس وطمأنينة، وانكشفت لهم سبحات الجمال والجلال، وتجـــلّت في مرآة الذات والصفات، فتحوّل وجودهم إلى وجود حقّ، وأصبحوا هم الإرادة الـــنافذة لـــلحق ومشيئته الكاملة وعلمه الفعلي ((فالحق يسمع به ويبصر به ..))[3]. ويطـــلقُ أهـــل العرفان على إنسان الطائفة الأولى (العارف الكامل)، وعلى إنســـان الطائفـــة الثانية (العارف المكمِّل)، ذلك لأنَّ الثاني لم يكتف بالوصول إلى

---

١ ــ سورة النساء : ١٠٠.

٢ ــ راجع : الآداب المعنوية: ٤٩١ ــ ٤٩٢.

٣ ــ راجع : الأربعون : ٦٢٦.

الكمـــال، بل سعى جاهداً بمدّ يد العون إلى الآخرين ليبلغ بهم الكمال، بعد أن يشنّ حرباً لا هوادة فيها ضدَّ كُلِّ الذين يقفون حجر عثرة في الطريق ((الطواغيت)).

إن العارف المكمّل هو الذي يعيش الساحة الاجتماعية بآمالها وآلامها، بتطلعاتها ومســتجداتها، ويشعر بالمسؤولية التغييريّة الساسيّة تجاه العالم أكثر من غيره .. وكلّما بــلغ في مقامات العرفان أكثر شعر بالمعاناة والمسؤولية بصورة أكبر، ورفض أن يقبع بين جدران أربعة، بعيداً عن الأحداث المحليّة والأقليمية والدوليّة.

ولهذا يرى مفسّرنا أنّه من المحتمل أنْ تكون مقولة الرسول (ص): ((ما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت)) تشير إلى هذا المعنى[1]!!

نماذج تفسيريّة

لمفسّـــرنا الإمام الكثير من الآيات المباركة التي فسّرها تفسيراً عرفانياً، ولا يسع المقام لاستعراضها .. وإنما نكتفي بلمحة سريعة عن بعضها:

إياك نعبدُ وإياك نستعين : لطائف عرفانية

في تفسيره لقوله تعالى (إياك نعبدُ وإياك نستعين) يشير مفسّرنا إلى ستّ لطائف عرفانية، يتعلق بعضها بالسياق كالسرّ في تقديم العبادة على الاستعانة، وتقديم (إياك) عـــلى (نعـــبد) و (نستعين)، وبعضها الآخر يتعلق بالمفردات كالسرّ في مجيء العبادة والاستعانة بصيغة الجمع دون المفرد، حيث يطرح وجهين عرفانيين في ذلك، الأول: أنَّ المؤمن وحده جماعة، والثاني: أنّ المؤمن يرى كُلَّ شيء يعبد ويستعين بربِّ العالمين (وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده)[2]. أما السرّ في ((الالتفات)) من الغيبة إلى الخطاب، فإنّه يتعلق بطبيعة السير الارتقائي والسفر العرفاني، كما يقول الإمام، ذلك أن السالك حيـــث يصل إلى ((مقام الخلوة)) بحصول ((حالة المحو)) التي تؤدي إلى ((الحضور في

---

١ ــ راجع : الأربعون : ٢٨٣.

٢ ــ سورة : الإسراء : ٤٤.

الحضرة)) ويزول غبار الكثرة، وتتكسر أصنام كعبة القلب، فيرى ((الكثرات منطوية تحـــت ســـطوع نور المالكيّة والقاهريّة)) فيعرض ((طلبه لله على محضر القدس ومحفل الأنس)) حيث لا يوجد بين العبد والحقّ حجاب[1].

دائرة الوجود : الفقر الذاتي والتعلّق المحض

يرى مفسرنا أنّ الآية: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد)، فيهـــا إشـــارة إلى ((أنّ جميع دائرة الوجود، من أعلى مراتب الغيب إلى أدنى مراتب الشهود، هي عين التعلق ومحض التدلّي والفقر إلى القيوم المطلق)).

((فـــإذا كـــان هـــناك موجود من الموجودات، في حالٍ من الحالات، وآن من الآنات، وحيثيةٍ من الحيثيات، غير متعلّقٍ بعزِّ القدس الربوبي، يخرج عن بقعة الإمكان الذاتي والفقر، ويدخل ـــ حينئذٍ ـــ في حريم الوجوب الذاتي والغنى)).

لـــذا يوجب مفسّرنا ((على العارف بالله والسالك إلى الله أنْ يكتب هذا المطلب الحـــق الـــبرهاني، وهـــذه اللطيفة الإلهية العرفانيّة، في لوح القلب بواسطة الرياضات القلبيّة، ويخرجها من حدِّ العقل والبرهان إلى حدِّ العرفان، حتى تتجلى في قلبه حقيقة ونور الإيمان))، والذي يعيش هذه الحقيقة يرى جميع الناس مثله فقراء ضعفاء لا حول لهـــم ولا طـــول .. وأنهم جميعاً في احتياج دائم إلى الغني المطلق .. مهما امتلكوا من مظاهر القوة والعظمة .. وهذا ما يولّدُ في قلب السالك ((حالة تقهر العوامل الأخرى وتستولي عليها، وتظهر للروح حالة من الشموخ والعظمة تأبى الطاعة إلا أمام الرب ســـبحانه وأمام من تكون طاعتهم طاعة ذات الحق المقدس))[2] وهكذا يعيش المؤمنون بالله الشموخ والعظمة أمام المستكبرين والدول الكبرى.

---

١ ـــ راجع : الآداب المعنوية: ٤٢٢.

٢ ـــ الأربعون : ٢٩٠.

الهجرة الصورية والهجرة المعنويّة

وفي قوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله)[1]. يرى مفسّرنا أنّ هذه الآية المباركة ((يمكن أن تكون متكفّلة لجميع مراتب الإخلاص))، وأنّها تتضمن نوعين من الهجرة، أحدهما: الهجرة الصوريّة، وثانيهما: الهجرة المعنوية والسفر القلبي العرفاني، والخروج من بيت النفس ومترل الأنانية[2]. ولهذا السفر العرفاني مقامات ومراتب، ولكل مقام درجة من درجات الإخلاص والخلوص[3].

هكذا يلتحم العرفان بالثورة، والوصال بالقتال، والمناجاة بالمواجهة، لتخلق العارف الثائر. يقول تلميذ الإمام المفسِّر المعاصر العارف الجوادي الآملي: ((إنّ روح العارف لا تنسجم مع الحماسة فحسب، بل إنّها تطبع الحماسة بطابع المعرفة، وبهذا يستحيل على أهل المعرفة أن يكونوا من المسالمين للظلمة أو الخانعين للطغاة))[4].

إن نشيد العرفان والثّوار في لحظات شربهم كأس الشهادة: (فزت وربّ الكعبة) أي : لقد وصلنا إلى مقصودنا[5].

من هذا المنطلق يمكننا أنْ ننتقل إلى البعد الثاني في تفسير الإمام .. والذي هو في حقيقته نابع من البعد الأوّل، وثمرةٌ طبيعية من ثماره، ورشحةٌ من رشحاته.

البعد الثاني : السياسي الثوري

يرى مفسّرنا أنّ القرآن كتاب سياسة وحكومة ودولة، كما أنّه كتاب صراع وحركة وانبعاث نحو ساحة الصراع، وميدان المواجهة، مع القوى الكبرى.

---

١ ــ سورة النساء : ١٠٠.

٢ ــ راجع : الأربعون : ٦٦٦ ــ ٦٦٧، وكذلك : الآداب المعنوية : ٢٩٥.

٣ ــ راجع : الآداب المعنوية : ٣٠٠.

٤ ــ عبد الله جوادي آملي : الحماسة والعرفان : ١٦٩.

٥ ــ راجع : الحماسة والعرفان.

فهو باختصار كتاب (ثورة ودولة):

((القرآن كتابُ المستضعفين في مواجهة المستكبرين)).

((القرآن كتاب صراعٍ وحربٍ مع الطواغيت والقوى المستكبرة)).

((القرآن كتاب الإنسان الفاعل المتحرك المُغيّر)).

((القرآن كتاب حماسة ، وحرب ضد المتسلطين)).

((القرآن كتاب إقامة حكومة العدل الإلهي))[1] .

ولهـذا يـرى الإمـام أنّ المؤامرة الكبرى على القرآن هي أن يُطمس هذا البعد السياسي الثوري .. الذي هو أحد أبعاده المهمة والأساسية .. ليعيش القرآن بعيداً عن ساحة الحياة والصراع، وتصادر حكومة العدل الإلهي التي هي إحدى غايات وأهداف هـذا الكـتاب المقـدس. بل ((وبلغ الأمر أن دور القرآن صار وسيلة لإقامة الجور والفسـاد، وتـبرير ظـلم الظـالمين))، وذلك ((على يد المتآمرين الأعداء والجهلة الأصدقاء))[2] .

وعـلى ضـوء ذلك يدعو بقوّة ــ في وصيته العبادية السياسية ــ إلى ضرورة ((إنقاذ القرآن من المقابر)) ليأخذ دوره الريادي في قيادة الأمة الإسلامية، بل البشرية جمعاء، نحو العدل والقسط والحريّة.

وقـد سـجل نقطـة فخر في وصيته، حيث يقول: ((نفخر بأننا أتباع مذهب يسـتهدف أن يخلّص حقائق القرآن .. من المقابر، ليقدمه باعتباره أعظم وصفة إنقاذ للبشـريّة من جميع ما يكبّل يدها ورجلها وعقلها من قيود، ومن كل ما يدفعها نحو الفناء والإبادة والعبودية والخنوع للقوى الطاغوتية)). كما سجّل نقطة فخر أخرى لما لاقـاه الأئمـة عليهم السلام ((عِدْل القرآن)) من معاناة وآلام على طريق حاكمية القرآن. يقول: ((نحن نفخر بأن يكون الأئمة المعصومون ــ صلوات الله عليهم ــ قد

---

١ ــ راجع : القرآن باب معرفة الله. بالفارسية.

٢ ــ وصية الإمام.

عـــانوا الســـجن والتشريد .. على طريق تطبيق القرآن الكريم، وإقامة حكومة العدل الإلهـــي باعتـــبارها واحـــداً مـــن أبعاده، استشهدوا في النهاية على طريق الإطاحة بالحكومـــات الجائرة والطاغوتية المعاصرة لزمانهم. ونحن نفخر اليوم بأننا نُريد تطبيق أهداف القرآن والسنّة، وبأنّ فئات الشعب المختلفة يبذلون بولع شديد، النفس والمال والأعزة، على هذا الطريق المصيري الكبير)).

ولقـــد حذّرنـــا في وصيته أيضاً من مؤامرات ((القوى الشيطانية الكبرى)) التي تســـعى جـــاهدة لـــ ((محو القرآن)) و ((إبعاده من الساحة))، بواسطة عملائها من الأنظمة، والحكّام .. الذين راحوا يتآمرون على القرآن باسم القرآن، وإظهار الحرص على نشره، وإنفاق المبالغ الطائلة في طبعه.

وهكذا جعل الطواغيت من القرآن ((وسيلة لإقامة حكومات معادية للقرآن)) و ((صادروا حكومة العدل الإلهي التي هي أحد أهداف هذا الكتاب المقدّس))[1].

القرآن والمؤامرات المعاصرة

قد شخّص مفسّرنا في وصيته نوعين من ((المؤامرات الخطرة التي برزت في القرن الأخير، خاصة خلال العقود الأخيرة، وبالأخص بعد انتصار الثورة)):

المؤامرة الأولى : شبهة الثابت والمتغيّر

وتتلخص بأن القرآن لا يمكن أن يواكب الحياة فضلاً عن أن يقودها، بعد مرور أكثر من ألف وأربعمئة عام على نزوله، حيث التطورات الهائلة التي حصلت في العالم، فـــلا بُـــدَّ من أن يقف الثابت القديم والنصوص القرآنية بوجه المتغيّرات والتطورات والمستجدات.

وهـــذه الشبهة قد سخّرت لها أقلام تلامذة الاستشراق التي راحت تتحدّث عن إشـــكالية الـــثابت والمتحوّل .. واعتبارها هي الأساس في جمود وتحجّر العقل العربي

---

١ ـــ وصية الإمام.

والإســلامي وعرقلته عن الإبداع والتطور، ويجيب مفسّرنا على هذه الشبهة بنقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى: التفريق بين المبادئ والوسائل

هل كُلُّ شيء في الحياة يخضع لقانون التطور والتغير، أم أنّ هناك ثوابت ومبادئ لا تتغيّر ولا تتبدّل، وإنْ تغيّرت أساليب التطبيق، ومتطلبات التنفيذ؟

لا شــك أن هناك مئات المبادئ والموازين والمعايير طابعها الثبات وعدم التحوّل، لأنّهــا ((ليســت بالأمور التي تبلى بمرور الزمن وعلى مرِّ التاريخ البشري)) ودعوى تغيــير مــثل هذه الموازين الثابتة ((بمثابة قول القائل: إن القواعد العقلية والرياضيّة في القرن الراهن يجب أن تتبدل لتحلّ محلّها قواعد جديدة!!)).

إن مــبدأ الحــرية وفق معيار العقل والعدل، ومبدأ الاستقلال، ومبدأ الاكتفاء الــذاتي، ومــبدأ العدالة الفردية والاجتماعية، ومبدأ مواجهة الظلم وحكومة الجور، ومقارعــة الاستعمار والاستغلال والاستعباد، وسياسة المجتمع وإدارته بموازين العقل والعدل والإنصاف، ((ومئات من هذا القبيل .. ليست بالأمور التي تبلى بمرور الزمان وعلى مرِّ التاريخ)). ويتساءَل الإمام باستنكار:

لــو أن إجــراء العدالة الاجتماعية ومنع الظلم والنهب والقتل كان ضرورياً في صدر الخليقة، فهل أصبح ذلك بالياً في قرن الذرّة؟! ولهذا فإنّ شبهة الثابت والمتغيّر لا يُثيرها إلا ((جاهل)) أو ((متجاهل))[1].

النقطة الثانية : معنى مظاهر التمدن ومتطلبات العصر

مــا هــو المقصود من مظاهر التمدن والحضارة؟ وهل يقف القرآن ضدها؟ هل المقصــود مــن ((مظاهــر التمدن والتجدد هو الاختراعات والابتكارات والصنائع المــتطورة لمالــه مساس في رقي الحضارة البشرية))؟ أو أنّ المقصود ((هو ذلك الذي

---

١ ــ وصية الإمام.

يـــردده بعـــض أدعياء الثقافة الذاهبين إلى أنّ الحريّة في ارتكاب جميع ألوان الفحشاء والمنكرات بما في ذلك الشذوذ الجنسي وأمثاله؟)).

فإذا كان المراد المعنى الأول ((فإن الإسلام وسائر المذاهب التوحيديّة ما عارضت ذلك ولن تعارضه، بل إنّ العلم والصناعة مما أكّدها الإسلام والقرآن المجيد))، أما إذا كان المراد المعنى الثاني ((فإن جميع الأديان السماوية والعلماء والعقلاء يعارضون ذلك، وإن كان التابعون للشرق والغرب يروّجونَ ذلك عن تقليد أعمى))[1].

المؤامرة الثانية : التعارض بين القرآن والسياسة

وظاهـــرة الدفـــاع عن قداسة القرآن ككتاب سماوي، يهتم بالمعنويات وتهذيب النفوس والدعوة إلى ترك الحياة الدنيا، والسياسة والحكومة تتعارض مع تلك الأهداف المعـــنوية الكبيرة، وبالتالي لا بدَّ من فصل الإسلام عن السياسة والحكم حتى لا ندنس قدسيّة الإسلام والقرآن معاً.

ويرد الإمام على تلك التهمة بنقطتين أساسيتين أيضاً:

الأولى : الإسلام سياسته عبادة، وعبادته سياسة

((إنَّ القرآن الكريم وسنّة رسول الله (ص) فيهما من أحكام الحكم والسياسة ما لا تبلغه أحكام سائر المجالات الأخرى، بل إن كثيراً من الأحكام العبادية للإسلام هي عبادية سياسية، أدّت الغفلة عنها إلى كل هذه المصائب))[2]، بل ((إنّ الإسلام سياسته عبادة وعبادته سياسة)).

الثانية : التفريق بين حكومة الظلم وحكومة العدل

((إنَّ المـــرفوض هو الحكومات الشيطانية والديكتاتورية والظالمة .. أما حكومة الحقّ المقامة لصالح المستضعفين .. فهي التي سعى إليها أمثال سليمان بن داود عليهما

---

١ ـــ وصية الإمام.

٢ ـــ وصية الإمام.

الســـلام) ونبي الإسلام الأعظم (ص) وأوصيائه الكرام عليهم السلام، وهي من أعظم الواجبات، وإقامتها من أسمى العبادات)).

وإن ((مـــا يقال بأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يهتمون بالمعنويات)) بعيداً عن ((الحكومـــة وإدارة الأمـــور الدنيويّة، لخطأٌ مؤسف تؤدي نتائجه إلى فساد الشعوب الإسلامية، وفتح الطريق أمام المستعمرين مصاصي الدماء)) [1].

إن القرآن، زاخرٌ بآيات الحرب والقتال والجهاد ضد القوى الطاغوتية المستكبرة .. كمـــا أنّه زاخرٌ بقصص المواجهة والرفض والثورة .. وإن شعار (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) [2] يُعدُّ من مظاهر الرحمة القرآنية للعالمين، ولهذا فإنّ ((من يقول بأن القرآن لم يتحدث عن القتال والحرب حتى النصر، لا يفهم القرآن))، وهذه تهمة باطلة يُثيرها ((وعّـــاظ السلاطين والمتلبسون بزي علماء الدين)) [3] الذين يريدون للحوزات العلميّة والمراكـــز الإســـلاميّة والمؤسسات الدينيّة أن تكون كما كانت عليه ((الكنائس في القرون الوسطى)) [4].

نماذج تفسيرية

الحكومة العادلة من مفردات الأمانة

في تفســـيره لمعنى (الأمانة) في قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهـــلها وإذا حكمـــتم بين الناس أن تحكموا بالعدل...) [5] يرى الإمام أنّ ((الحكومة العادلة من مفردات الأمانة التي يجب تسليمها إلى أهلها)) بل هي المفردة الأهم. ولهذا

---

١ ـــ وصية الإمام.

٢ ـــ سورة الأنفال : ٣٩.

٣ ـــ خطاب الإمام يوم المولد النبوي : ١٩٨٤/٢/١٠.

٤ ـــ خطاب الإمام يوم ٢/٢٢ ١٩٨٩.

٥ ـــ سورة النساء : ٥٨.

فإنّــه يــرى من الخطأ الاقتصار على المصاديق الصغيرة للأمانة، والتي تتعلّق بالأمور الشخصية سواء الماليّة أو الشرعيّة[1].

السحت الدولي

وفي تفســيره لمعنى (السحت) في قوله تعالى (لولا ينهاهم الربانيّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون)[2]، يشجب مفسّرنا تلك النظرة الضــيقة لمعــنى السحت، التي ((لا تتجاوز النقص في الميزان والبخس في المكيال))، ويركّــز عــلى ما يسمّيه بــ ((السحت على نطاق عالمي))، حيث مظاهر اختلاس أموال الشعب، وسرقة ثروات الأمة من البترول وبيعه بثمن بخس .. ولذلك يدعو إلى الــنظرة المنفــتحة عــلى أشكال السحت التي تمارسها الحكومات الطاغوتية الجائرة المــتحكمة في رقاب المسلمين وثرواتهم[3]. ويرى أنّ اللوم والتوبيخ في الآية المباركة ((لا يخــصّ علماء اليهود والنصارى فحسب، بل يشمل علماء الإسلام أيضاً إذا ما سكتوا على ما يرون من أعمال الجور والإثم))[4].

لا سبيل للمستعمرين

وانطلاقــاً مــن قوله تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)[5] يؤكد الإمام أنّ هذا المقطع من الآية لو تمسك به المسلمون لما استطاعت القوى الاستكبارية التسلط عليهم واستعمارهم .. وذلك لأنّ ((الله عز وجل لن يجعل سلطة لغير المسلم

---

١ ــ راجع : الحكومة الإسلامية : ٨١.
٢ ــ سورة المائدة : ٦٣.
٣ ــ راجع : الحكومة الإسلامية : ١٠ ــ ١١.
٤ ــ الحكومة الإسلامية : ١٠٧.
٥ ــ سورة النساء : ١٤١

عــلى المسلم، ويجب أنْ لا يحدث ذلك أبداً .. أي سلطة .. أي سبيل .. يجب أن لا يُتاح للمشركين وهذه القوى الفاسدة ما يمكّنهم من التسلّط على رقاب المسلمين))[1].

الدولة وظيفة نبوية

وانطلاقــاً مــن الآية الكريمة: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)[2]، يؤكد مفسّرنا على الحكومة الإسلامية وأهميتها؛ ذلك لأن الآية المباركة تحدد ((الهدف الحقيقي)) لبعثة الأنبياء، وهو ((إقامة العدل والقسط في الــناس ، وتنظــيم حياتهم بموجب الموازين الشرعية، ولا يتم ذلك إلاّ بالحكومة الإســلامية، وهذه الحكومة كما تتمثل في شخص النبي أو الرسول تتمثل كذلك في الأئمة عليهم السلام وفي الفقهاء والعلماء المؤمنين العدول من بعدهم))[3].

البعد الثالث : الأخلاقي التربوي

يُعــد الــبعد الأخلاقي التربوي من أبرز الأبعاد في التفسير الخميني؛ لأنّ الهدف الأساس لهذا الكتاب الإلهي والنور الرباني هو التزكية والتعليم. قال تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)[4].

التزكية قبل التعليم

وقــف مفسّرنا على السياق في الآية المباركة، حيث ذكرت التزكية قبل التعليم. فما هو السرّ في ذلك؟.

يرى الإمام أنّ السر في هذا التقدم يكمن في أمرين أساسيين:

---

١ ـــ الحكومة الإسلامية.

٢ ـــ سورة الحديد : ٢٥.

٣ ـــ الحكومة الإسلامية : ٧٢.

٤ ـــ سورة الجمعة : ٢.

الأول: أنّ التزكية هي التي تيسّر وتمهّد للانسان إلى تعلّم القرآن وفهم أسراره.. فـإنّ الهدف من تلاوة القرآن هو ((التزكية للاستعداد إلى إدراك الكتاب والحكمة)) لأنه ((لولا التزكية لم يتيسر تعلّم الكتاب والحكمة)) .. ذلك لأنّ القرآن هو ((النور المتجـلّي من عالم الغيب، النازل منه إلى عالم الشهود .. فما دام الإنسان في حجابه فإنّــه لا يسـتطيع أن يـدرك هذا القرآن الذي هو نور))[1]. ((فكما أنّ غير المطهر الظاهـري ممـنوعٌ تشريعاً عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه .. كذلك ممنوعٌ عن معارفه ومواعظه وباطنه وسرّه مَنْ كان قلبه متلوثاً بأرجاس التعلقات الدنيويَّة)): (إنّه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسُّهُ إلاّ المطهرون)[2].

الثاني: أنّ التعليم من دون تزكية خطرٌ كبير، بل من أعظم الأخطار .. ((فلو لم تكـن الـنفس مزكاة فإنّ كلّ ما يحصلُ فيها سيكون حجاباً)). ولهذا يحذّر مفسّرنا بقولـه ((ما لم تزكّوا أنفسكم فإنّ العلم خطرٌ عليكم، بل أخطر من كُلِّ شيء))[3]. ويضـرب لذلك مثلاً بالمطر: ((هذا المطر الذي يترل رحمة من الله إذا أصاب الورود صَعَدَ منها شذى العطر، وإذا أصاب القاذورات صعدت منها الرائحة النتنة. وكذلك العـلم فإذا ورد قلباً مربّى بتربية صالحة فإنّ عطره سيملأ العالم، وإذا ورد قلباً مربى بـتربية فاسدة فإنّ فساده سيملأ العالم (إذا فَسَدَ العالِم فَسَدَ العالَم)))[4]. إنّ ((النفوس غـير المزكّاة التي لم تتخلص من شيطان الباطن بعد، إذا وردت مجال علم التوحيد أو المعـارف الإلهية أو مجال الفلسفة أو الفقه والاجتهاد أو أيِّ مجالٍ آخر، فإنّها تشكّلُ خطـراً عظيماً على البشريّة)). ولهذا فإن العالم الديني غير المزكّى خطره ((أعظم من خطر المغول)) على حدِّ تعبير الإمام.

---

١ ـــ خطاب الإمام يوم المولد النبوي ٢٧/رجب / ١٤٠١هـــ.

٢ ـــ سورة الواقعة : ٧٧ ـــ ٧٩.

٣ ـــ خطابه يوم المولد النبوي ١٤٠١هـــ.

٤ ـــ خطاب الإمام يوم ٢٣/ ربيع١ /١٤٠١هـــ.

مـــن هـــذا المنطـــلق يرى مفسّرنا أنّ التزكية للعلماء ورجال الدولة والرؤساء والزعماء تكون أكبر ضرورة منها لغيرهم: ((مهما طغى الفرد العادي وتجبّر فإنّه يضرُّ بأفـــرادٍ معدوديـــن، وربما أضرَّ بعائلته فحسب، ولكن (صدام)[1] طغى، واستوجب طغيانه دمار قطرٍ بل قطرين، بل يمكن أنْ يدمّر المنطقة كلّها))[2]!!.

صناعة الإنسان والمجتمع بين القلم والبندقية

إبّـــان الحـــرب الظالمـــة التي شنّها طاغية العراق على إيران، زار الإمام مسؤولو مكافحة الأميّة، وقد كانوا يرفعون استحياءً لافتة كُتِبَ فيها ((نودُّ أن نبدّل أقلامنا إلى بـــنادق)). وعندما رأى هذه اللافتة انطلق بحديث قرآني رائع حول قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، قائلاً:

((هذه اللوحة التي أحضرها السادة معهم مكتوب فيها ((نود أن نبدِّل أقلامنا إلى رشاشات (بنادق)))، ولكننا نأمل أنْ يصل البشر إلى تلك المرحلة من الوعي ليتمكن مـــن خلالها تبديل الرشاشات إلى أقلام، حيث إن الأقلام والكلمات خدمت البشرية أكـــثر مـــن الرشاشات. إنّ الرشاشات كانت غالباً في خدمة الدولة الكبرى ولأجل القضـــاء عـــلى البشـــرية. والإسلام وإن أمَرَ بالجهاد والدفاع، وهو بحاجة إلى أفراد محاربين لكنّ الأساس هو الدفاع عن الحقّ، وإحلال الحقّ والعلم محلّ الرشاش. فالقلم والعلم والبيان هي التي تصنع الإنسان، لا الرشاشات وسائر قوى الدمار)).

وأوضح الإمام دور العلم والقلم في وصول البشرية إلى كمالها الإنساني المنشود:

---

١ ـــ طاغية العراق صدّام .... الذي شنَّ حربَه الظالمة ضدَّ الثورة الإسلامية في إيران، نيابة عن أسياده، والثورة لم تبلغ ربيعها الثاني، وهو يصرّح ((إنّ المطلوب منا هو أنْ نكون ضدَّ تسييس الدين من قبل الدولة وفي المجتمع، وضدَّ إقحام الثورة في المسألة الدينيّة، وأن نعود إلى أصل عقيدتنا! وأن نعتز بالدين بلا سياسات للدين ...)) من كتاب ((حول كتابة التاريخ))لصدّام.

٢ ـــ خطاب الإمام يوم ٢٣/ ربيع١ /١٤٠١هـــ. وهذه نبوءة قد تحققت على الأرض، تنم عن معرفة الإمام وإدراكه لشخصية الطاغيّة.

((عندما تنتصر الأقلام على الرشاشات، وتنتشر العلوم بين البشر إلى حدّ يضعون الرشاشات جانباً، ويفسحون الميدان للقلم .. عندئذ يتمكن الناس من الوصول إلى الأهداف الإنسانية الإسلامية وإلى الكمال العلمي والثقافي)). وهنا نبّه مفسّرنا إلى أن ((أوّل آية نزلت على الرسول الكريم قد أوصت بالقراءة بقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق)[1]، وأشار إلى ضرورة ((القراءة الموجّهة)) التي تكون باسم الرّب، بدلاً من ((القراءة المطلقة)).

امتحان المناصب هو الأصعب

يربط مفسّرنا بين قوله تعالى (ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)[2] وبين قوله تعالى (.. ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة...)[3]، فإنّ الآية الأولى تحدّد مصاديق الابتلاء بالشرّ الذي أشارت إليه الآية الثانية .. بيد أنّه يرى أنّ الابتلاء بالخير أشد فتنة من الابتلاء بالشرّ، حيث إنّ ((الامتحان بتوفّر الأمن والمال والثروة والجاه وأمثال ذلك، لأعظم من الامتحان بنقص الأموال والأنفس والأولاد)). ويعتبر أن أكبر مصداق للابتلاء بالخير هو ابتلاء السلطة والقيادة والمسؤولية السياسية والاجتماعية، فإنّ ((ذلك الامتحان (نقص الأموال والأنفس ...) أيسر ممّا يمتحن الله به قادة البلاد))!

فكم من الرؤساء كانوا قبل الوصول إلى منصب الرئاسة يدّعون التحرر وحبّ الإنسانية والمحافظة على سعادة البشر، ولكنهم ما إن يصلوا إلى المنصب، حيث يمتحنهم الله به، تجدهم لا يفلحون في الامتحان، بل تراهم يمعنون في هتك تلك الحقوق وإهانة الإنسانية.

---

١ ـ خطاب الإمام يوم ٢٧/ ربيع١/ ١٤٠٠هـ.

٢ ـ سورة البقرة : ١٥٥.

٣ ـ سورة الأنبياء : ٣٥.

((إن امـــتحان الـــناس في الوصول إلى منصب الرئاسة أو إلى أيّ منصب كان، أصعب من الامتحان في النفس والأولاد، ومن الصعب جدّاً أن ينجو فيه الإنسان))[1].

(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام • وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبُّ الفساد • وإذا قيل له اتق الله أخذته العزّةُ بالإثم فحسبُهُ جهنّمُ ولبئس المهادُ)[2].

١ ــ الآداب المعنوية : ٤٠٣.

٢ ــ سورة البقرة : ٢٠٤ ــ ٢٠٦.

الفصل الرابع

الإمام والمنهج التفسيري

قلـــنا ســـابقاً إن طـــبيعة المـــنهج، بأدواته وأصوله ومبادئه وقواعده، هي التي تعطي للممارسة التفسيرية صبغتها وأبعادها ومعالمها، كما تحدد مدى استقامتها أو انحرافها، صوابها أو خطئها، فقد جاء في الرواية:

((من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ))

كيف تجتمع الإصابة مع الخطأ؟! وكيف يمكن لنا أن نتصور ذلك؟!.

إن الخطـــأ رغـــم الإصـــابة، لا يمكن أن يفسّر إلا على أساس الخطأ في المنهج والطـــريقة، والإصابة في النتيجة، فقد تكون الطريقة خاطئة، بيد أن النتيجة تكون ـــ اتفاقاً ـــ صحيحة وصائبة.

ولهذا يرى مفسرنا الإمام أن المفسّر الذي لا يمتلك المنهج المتكامل، ولم يستوعب أصول التفسير وقواعده ومبادئه، لا ينبغي له أن يقتحم ميدان التفسير الخطير، لأنه لا يـــأمن أن يكون مصداقاً للحديث الشريف: ((من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من الـــنار))، فإنـــه ـــ والحالة هذه ـــ حتى وإن أصاب لا يؤجر ولا يثاب: ((من فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء))!!

وفي المقابل، ذلك المفسّر الذي توفّر لديه المنهج، يكون معذوراً بل مأجوراً حتى في مواقـــع الخطـــأ وعدم الإصابة في تشخيص المعنى والدلالة .. وبذلك تنطبق عليه مقولة: إن أخطأ فله أجر، وإذا أصاب فله أجران.

من هذا المنطلق كان مفسّرنا الإمام حذراً وهو يمارس عملية التفسير رغم امتلاكه لمنهج متميز وفريد في تفسير القرآن المجيد .. ذلك المنهج الجامع المتكامل الذي يتضمّن كـــل الوسائل والأدوات والأصول التي يحتاجها المفسّر من أجل الوصول إلى دلالات ومعاني وأسرار وأعماق الآيات القرآنية بقدر الطاقة البشرية والوسع الإنساني.

ويمكننا أن نحدد ثلاث مفردات أساسية في منهج الإمام التفسيري:

المنهج الأول: العقلي التدبري.

المنهج الثاني: الشهودي العرفاني.

المنهج الثالث: النقلي الروائي.

المنهج الأول : العقلي التدبري

إن المفـــردة الأولى والأســـاس في المنهج الخميني في التفسير هي التدبر العقلي في آيـــات الله، ذلك لأن القرآن الكريم ((مائدة أرسلها الله تعالى لينتفع بها جميع البشر، كـــلٌّ بمقدار قدرته .. من العالم والعامي والفيلسوف والعارف والفقيه)) فإن ((على الجميـــع أن يجـــتهدوا بأفكارهم ويستعملوا مواهبهم لدرك هذا الكتاب لنستفيد منه بأقصى ما يمكن)).

إن القـــرآن ((مـــائدة مبســـوطة للجميع)) لأن ((الهدف من إنزال هذا الكتاب المقـــدس، والهدف من البعثة النبوية، هو وضع هذا الكتاب في موضع بحيث ينتفع منه الجميع ليستفيد منه كل فرد بقدر ما أوتي من وسع فطري))[1]:

(هـــو الـــذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ..)[2].

ويـــرى مفسّرنا أن هناك حجباً مانعة من التدبّر في آيات القرآن الكريم، جعلت الكـــثير مـــن الناس، بل حتى بعض العلماء، يقفون أمام القرآن وقد عطّلوا عقولهم، وســـكّروا آذانهم، لأنهم يعتقدون بأنه لا يحق لأحد الاستفادة من القرآن إلا المعصوم، حيث أنهم يتشبثون ببعض الروايات التي فهموها خطأ كرواية ((من فسّر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ))!!

معنى التفسير بالرأي المذموم

ويرد مفسّرنا على هؤلاء المتحجرين الخائفين بأربع نقاط أساسية:

---

١ ـــ خطاب الإمام يوم ١٧/رجب / ١٤٠٠هـــ.

٢ ـــ سورة الجمعة : ٢.

١ــ أن تدبّر القرآن وأخذ الدروس والعبر والاستفادات من آياته المباركة ليس له علاقـــة بالتفسير، فضلاً عن أن يكون من التفسير بالرأي المذموم حيث يقول: ((وقد اشـــتبه عـــلى الناس التفكّر والتدبّر في الآيات الشريفة بالرأي الممنوع، وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع فنون الاستفادة ،واتخذوه مهجـــوراً بالكلية ،والحال أن الاستفادات الأخلاقية والإيمانية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي؟!))[1].

ولتوضـــيح الفكـــرة يقـــول مفسّرنا: ((إذا استفاد أحد ــ مثلاً ــ من كيفيّة مذاكـــرات موسى مع الخضر وكيفية معاشراتهما، وشدّ موسى رحاله إليه، مع ما له من عظمة مقام النبوّة لأخذ العلم الذي ليس موجوداً عنده، وكيفيّة عرض حاجته إلى الخضـــر .. (هل أتّبعك على أن تعلّمني ممّا عُلِّمتَ رُشداً)[2] وكيفيّة جواب الخضر .. والاعتذارات التي وقعت من موسى، إذا استفاد أحد عظمة مقام العلم وآداب سلوك المتعلّم مع المعلّم، ولعلّها تبلغ من الآيات المذكورة إلى عشرين أدباً ... فأي ربط لهذه الاستفادات بالتفسير فضلاً عن أن يكون تفسيراً بالرأي))[3]؟

٢ــ إن التفســـير بالـــرأي لا علاقة له بآيات المعارف والعلوم العقلية التي توافق الموازيـــن البرهانية، وبالآيات الأخلاقية التي فيها للعقل دخل ((لأن التفاسير التي من هذا القبيل مطابقة للبرهان المتين العقلي أو الاعتبارات الواضحة)).

٣ــ ((مـــن المحتمل بل من المظنون أن التفسير بالرأي راجع إلى آيات الأحكام الـــتي تقصر عنها أيدي الآراء والعقول، ولابد من أن تؤخذ بصرف التعبّد والانقياد، وروايـــة ((إن دين الله لا يصاب بالعقول)) تشهد بأن المقصود من دين الله الأحكام التعبدية للدين))[4].

---

١ ــ الآداب المعنوية : ٣٤٣.

٢ ــ سورة الكهف : ٦٦.

٣ ــ الآداب المعنوية : ٣٤٣.

٤ ــ الآداب المعنوية : ٣٤٤.

٤ــ قــد يكــون المقصود من ((التفسير بالرأي)) المذموم، هو تحميل ما لدى الإنسان من أفكار مسبّقة وآراء وأهواء على القرآن، كأن يعمد إلى تلبيس آرائه على القرآن، فيطبّق المادي أفكاره على بعض الآيات القرآنية، والعرفاني على البعض الآخر لتأويلها إلى ما يعتقده ويؤمن به[١].

من هذا المنطلق يشجب مفسّرنا الجمود والتحجّر في التعامل مع القرآن .. الذي جعــل بعضــهم يذهب إلى عدم حجيّة الظواهر القرآنية، واكتفى بالروايات، وعطّل عقله عن فهم الآيات فهماً صحيحاً وتعقّلاً سليماً.

وقــد كــلّف الفهم الخاطئ للروايات علماء التفسير جهوداً كبيرة من أجل أن تتضــح دلالاتها الحقيقية .. فقد وقف عليها مفسّرنا كثيراًكثيراً ،كما وقف عليها من المفسّــرين المعاصرين العلاّمة الطباطبائي في تفسيره الميزان، وخصص بحوثاً في ذلك .. وانــتهى بنتــيجة رائعة مفادها أن ((التفسير بالرأي المنهي عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف)).

((وبعبارة أخرى إنما نهى (ع) عن تفهّم كلامه على نحو ما يتفهّم به كلام غيره، وإن كان هذا النحو من التفهّم ربما صادف الواقع. والدليل على ذلك قوله (ص) في الرواية الأخرى ((من تكلّم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)) فإن الحكم بالخطأ مع فــرض الإصابة ليس إلا لكون الخطأ في الطريق. وكذا قوله (ع) في حديث العيّاشي: إن أصاب لم يؤجر))[٢].

إن الحديث (من فسّر القرآن برأيه ..) ((ليس المراد به النهي عن الاجتهاد المطلق في تفسير القرآن حتى يكون بالملازمة أمراً بالاتّباع والاقتصار بما ورد من الروايات في تفســير الآيــات عن النبي وأهل بيته ــ صلى الله عليه وعليهم ــ على ما يراه أهل الحديث، على أنه ينافي الروايات الكثيرة الدالة على كون القرآن عربيّاً مبيناً، والآمرة

---

١ ــ تفسير آية البسملة. ..

٢ ــ الطباطبائي. الميزان : ٣ : ٧٦ ــ ٧٧.

بالـــتدبر فيه، وكذا ينافي الروايات الكثيرة الآمرة بالرجوع إلى القرآن وعرض الأخبار عليه)).

ليـــس هذا وحده نستفيده من إضافة الرأي إلى الضمير (برأيه) فحسب، بل إن الإضـــافة في قوله: (برأيه) تفيد ((معنى الاختصاص والانفراد والاستقلال، بأن يستقل المفسّر في تفسير كلامه بكلام الناس))[1].

الألفاظ وضعت لروح المعاني

وهذه الملاحظة ذاتها حذّر منها مفسّرنا الإمام، حيث يرى ((أن الألفاظ موضوعة للمعاني العامة والحقائق المطلقة))، وأن الواضع وإن لم يلاحظ حين الوضع تلك المعاني المطـــلقة، بيـــد أن ((ما وضعت له الألفاظ هو هذه المعاني المجرّدة المطلقة بالضبط)). ويضـــرب مثلاً يوضّح تلك الفكرة التي يعدّها ((مفتاح مفاتيح المعرفة، واصل أصول فهم الأسرار القرآنية))[2]. حيث يقول:

((عـــندما أراد الواضـــع أن يضـــع لفـــظ (النور)، فإنّه أراد الإشارة إلى جهة ((النوريّة)) لا إلى جهة اختلاط النور بالظلمة، رغم أن الذي يراه من الأنوار هو هذه الأنوار الحسيّة الجزئيّة))[3].

كذلـــك الحال في لفظ النار فإنّ الواضع ((لم ير سوى هذه النار الدنيويّة، وهي التي سببت التفاته إلى هذه الحقيقة، فهو ليس مطّلعاً على نار الآخرة)) .. ولهذا ((نحن لا نقـــول بأن الواضع هو شخصيّاً الذي جرّد المعاني فيكون الأمر مستغرباً مستبعداً و إنما نقول: إن الألفاظ إنما وقعت في نفس جهة المعاني، دون أن تتقيّد بقيد))[4].

---

١ ـــ نفس المصدر : ٧٦.

٢ ـــ الإمام الخميني. مصباح الهداية : ٣٩.

٣ ـــ آداب الصلاة : ٣٧٩.

٤ ـــ نفس المصدر : ٣٨٠.

ولهــذا فإنــه ((كلما كان المعنى خالياً من الغرائب والشوائب، فهو إلى الحقيقة أقرب، ومن شائبة المجاز أبعد)).

من هذا المنطلق ((يمكن أن يقال: إن النور لو كان موضوعاً للظاهر بذاته والمظهر لغــيره، فإطلاقــه عــلى غير الحق ــ تعالى ــ حقيقة عند العقول الجزئية، وأما عند العقــول المؤيــدة وأصــحاب المعرفة فمجاز، وإطلاقه على الحق ــ تعالى ــ حقيقة فقط)). وهكذا ((جميع الألفاظ التي وضعت للمعاني الكماليّة))[1]. من هنا نفهم معنى ((أن الألفاظ وضعت لروح المعاني)).

وهــذه الحقيقة الكبيرة التي يعدّها مفسّرنا ((أصل أصول فهم الأسرار القرآنية)) تعطي لنا مبادئ قيّمة وأساسية في التدبر القرآني للآيات المباركة:

المبدأ الأول: ضرورة إبقاء الألفاظ على معانيها الظاهرية، وعدم اللجوء إلى المجاز في كثير من الحالات، وإن تحصيل الباطن يكون من خلال الظاهر. وعلى ضوء ذلك نتخلّص من المجاز في مجالين أساسيين:

الأول: أسماء الله وصفاته.

والثاني: تسبيح ونطق الموجودات.

ففــي الآيــة الكريمة (ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشــمس والقمر والنجوم والجبال والشجر..)[2]، يرى أنها من الآيات التي ((لا تقبل الــتأويل)) وأن ((تــأويل التســبيح الــتكويني أو الفطري يكون من التأويل البعيد الموهون))[3].

---

١ ــ الآداب المعنوية : ٤٠٣ ــ ٤٠٤.

٢ ــ سورة الحج : ١٨.

٣ ــ الأربعون : ٧٠١.

المبدأ الثاني: ضرورة تخليص حقيقة المعاني من الأمور الزائدة، حتى لا ينصرف المعنى إلى ما يستأنس به الذهن من الصورة الحسيّة المألوفة، للوصول إلى روح المعنى الحقيقي.

ولا يسعنا المجال لأن ندخل في تفاصيل التدبّر في منهج الإمام التفسيري حيث إن لمفسّرنا منهجاً رائداً في تدبّر المفردة القرآنية أولاً، وفي تدبر السياق ثانياً، وفي تدبّر الآية مع الآيات الأخرى المختلفة معها في السياق ثالثاً، وفي تدبّر الروايات المفسّرة رابعاً.

المنهج الثاني : الشهودي العرفاني

قد يُتصور أن التفسير القائم على منهج الكشف العرفاني والذوق الشهودي، إنما هو تفسير لا دليل عليه بكتاب ولا سنة ولا برهان، وأنه قائم على تأويلات نابعة من مكاشفات غالباً ما تكون محض خيالات وأوهام، وصادرة من القاءات شيطانية قد حسبها أصحابها إلهية رحمانية. فما أكثر الهواجس والشطحات والوساوس عند أهل التصوّف والعرفان! وحتى لو فرض أنها مشاهدات رحمانية، ومكاشفات صادقة، فإنها لا تمتلك أي نحو من أنحاء الحجّيّة الذاتية، وليس لها قيمة على مستوى الإلزام بل الإقناع.

ولهذا يرفض بعضهم الكشف والذوق الشهودي كأداة منهجية من أدوات المعرفة، وطريق من طرق الوصول إلى الحقيقة.

إن أهل العرفان وإن كانوا لا ينكرون تلك الشطحات والوساوس والهواجس عند بعض العرفانيين .. فهم يؤكدونها ويحذّرون من مخاطرها ومطبّاتها، ويكشفون عن عللها وأسبابها، إلا أنهم يرون أن ذلك لا يمكن أن يكون مبرراً لنفي منهج الكشف

والشهود على الإطلاق، ((لأن أخطاء بعض أهل فنّ لا يجوز أن تعد دليلاً على بطلان ذلك الفن))[1]، وأن منهج الكشف والشهود له أدلته ومبرراته عند من يتبناه.

الأدلة والمبررات

ويمكننا أن نستعرض أهم الأدلة التي يوردها المفسرون العرفانيون على مشروعيّة منهجهم التفسيري الشهودي الكشفي:

أولاً : القرآن الكريم

وفيه ثلاثة أمور أساسيّة:

أ ــ أصل القرآن وحقيقته

تؤكد الآيات المباركة أن القرآن الكريم قبل أن يترل في كسوة الألفاظ، كان في (كــتاب مكــنون) و (لــوح محفوظ) و (أم الكتاب) : (إنه لقرآن كريم في كتاب مكــنون)[2]. (بــل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)[3]. (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)[4].

على ضوء هذه الآيات المباركة، يؤكد المفسّرون العرفانيون أن القرآن في موقعه الأصــلي عند الله ((عليٌّ لا تصعد إليه العقول، حكيم لا يوجد فيه فصل وفصل))[5]، مكــنون (لا يمسُّهُ) بالعلم والاطلاع والتعقل (إلا المطهّرون) الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا)[6].

---

١ ــ عبد الله الجوادي الآملي : الهداية في القرآن : ٨٢.

٢ ــ سورة الواقعة : ٧٨.

٣ ــ سورة البروج : ٢٢.

٤ ــ سورة الزخرف : ٤.

٥ ــ الطباطبائي : الميزان : ٢ : ١٧.

٦ ــ سورة الأحزاب : ٣٣.

ولهذا فقد احتاج إلى التنزيل من أجل أن تتنزل ((حقائقه العالية ومقاصده المرتفعة عن أفق الأفهام العاديّة، إلى مرحلة التكلم العربي؛ لتناله عامة الأفهام))[1] : (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون. وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم)[2] .

يقول العلاّمة الطباطبائي في (الميزان):

((وجعــل رجــاء تعقله (لعلّكم تعقلون) غاية للجعل المذكور (إنا جعلناه قرآناً عــربياً)، يشهد بأن له مرحلة من الكينونة والوجود لا تنالها عقول الناس، ومن شأن العقــل أن يــنال كلّ أمرٍ فكري وإن بلغ من اللطافة والدقّة ما بلغ))[3] . ويؤكد أن ((العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبل المفاهيم والألفاظ أولاً، وكان مؤلفاً من مقدّمــات تصديقيّة يترتب بعضها على بعض، كما في الآيات والجمل القرآنية ، وأما إذا كــان الأمــر وراء المفاهيم والألفاظ، وكان غير متجزّئ إلى أجزاء وفصول، فلا طريق للعقل إلى نيله))[4] . ولعلّ هذا هو معنى ((التيسير)) في قوله تعالى: (ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر)[5]؟ ولا يتحقق التيسير من دون التنزيل: (إنّه لقرآن كريم • في كتاب مكنون • لا يمسّه إلا المطهّرون • تنزيل من رب العالمين)[6] .

مــن هــذا المنطلق يدعو مفسّرنا الإمام إلى ضرورة استيعاب مقام بل ((مقامات وكيــنونات)) القرآن قبل التنزّل، حتى ندرك أن ((هذا القرآن الذي ظهر في كسوة العبارات والألفاظ هو صورة التجليّات الذاتية في مرتبة الذات، وعين التجلّي في مرتبة الفعل، كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه (إنما كلامه فعله))).

---

١ ــ الميزان : ١٩ : ٦٩.

٢ ــ سورة الزخرف : ٣ ــ ٤.

٣ ــ الطباطبائي : الميزان : ٢ : ١٧.

٤ ــ نفس المصدر : ١٨ : ٨٤.

٥ ــ سورة القمر : ١٧.

٦ ــ سورة الواقعة : ٧٧ ــ ٨٠.

القرآن : تجلي الحق سبحانه

إن مقام القرآن الأول قبل التنزّل هو ((كينونته العلمية في الحضرة الغيبيّة بالتكلّم الذاتي والمقارعة الذاتية بطريق أحديّة الجمع، ولعلّ ضمير الغائب (أنزلناه) يكون إشارة إلى ذلـــك المقام .. فكأنه يقول: هذا القرآن النازل في ليلة القدر هو ذلك القرآن في السّر المكنون، والغيـــبي في النشأة العلميّة، قد أنزلناه على تلك المراتب، وكان متّحداً مع الذات، وكان من التجلّيات الأسمائية))[١].

فالقرآن إذن ـــ كما يقول مفسّرنا ـــ ((نازلة التجليات الإلهيّة، والصورة الكتبيّة للأسمـــاء الحسنى الربوبيّة))، فلا بد من أن تكون تلك الصورة اللفظيّة والكتبيّة على حســـب درجـــة التجـــلّيات، ولها التجلّي باسم الله الأعظم المستجمع لجميع الأسماء والصـــفات ،وبعـــد التجلي في ملابس الأسماء والصفات، والمظهر الأول منها الأسماء الجماليّـــة الـــذي يبدأ بمقام الرحمانيّة والرحيميّة الذاتيتين، وتجلي الرحمانيّة قبل تجلّي الرحـــيميّة (بســـم الله الرحمن الرحيم)، ثمّ المظهر الثاني الأسماء الجلاليّة على حسب مقاماتها))[٢].

مـــن هـــنا ندرك أن القرآن تجلي الحق سبحانه ((لقد تجلّى الله في كلامه)) لأن كلام كل متكلّم جلاء ذاته على حسب مقام الظهور، وبروز ملكاته بمقدار ما تسعه اللغة من ألفاظ وتعبيرات..

وهذه الحقيقة العرفانية المستنيرة بآيات القرآن والمؤيدة بالسنّة الشريفة، لها دورها الكـــبير في نظرة أهل العرفان إلى القرآن، وفي صياغة منهجهم التفسيري القائم على العقل أولاً، وعلى الكشف والشهود ثانياً.

وتنبع من تلك الحقيقة الكبرى الحقائق الآتية:

---

١ ـــ الآداب المعنوية : ٤٩٢.

٢ ـــ راجع : مصباح الهداية للإمام.

الحقيقة الأولى : القرآن أكمل كتاب واشرف شريعة

((إن اخـــتلاف الكـــتب السماويّة باختلاف تجلّيات الحق سبحانه، واختلاف الأسماء التي لها المبدئيّة للتجليات، كما أن اختلاف الأنبياء وشرائعهم باختلاف الدول الأسمائيـــة، فكلّ اسم تكون إحاطته أكثر وكان أجمع، تكون الشريعة التابعة له أكثر إحاطة وأدوم))[1].

وبمـــا أن النبوّة الخاتمة والقرآن الكريم وشريعة سيد المرسلين من مظاهر ((المقام الجـــامع الأحدي)) و ((حضرة اسم الله الأعظم)) وتجلياتها وظهوراتها، صارت أكثر النبوات والكتب والشرائع إحاطة وأجمعها ، ولا يتصورنّ أحد أن ثمّة أكمل وأشرف مـــن نبوّته وكتابه وشريعته، ذلك أنه لم ولن يتترّل من عالم الغيب على بسيط الطبيعة عـــلم أعـــلى مـــنه أو شبيه به، بمعنى: أن هذا هو آخر ظهور للكمال العلمي المتعلّق بالشرائع وليس للأعلى منه إمكان الترول في عالم الملك[2].

الحقيقة الثانية : جامعيّة القرآن

ليـــس معـــنى جامعيّة القرآن تبيان الكليّات والضوابط الجامعة، وإن كان القرآن كذلـــك، بل ((إن جامعيّته عبارة عن أن القرآن نزل لجميع طبقات الإنسان في جميع أدوار العمر البشري، وهو رافع لجميع حوائج هذا النوع))[3].

إن حقيقـــة الإنســـان ((حقيقة جامعة وواحدة لتمام المنازل من المترل الأسفل المـــلكي إلى أعـــلى مراتب الروحانية والملكوت والجبروت))، ولهذا فإن أفراد النوع الإنســـاني يختـــلفون في مداركهم اختلافاً تاماً، ويتفاوتون في معارفهم تفاوتاً كبيراً، بحيـــث إننا لا نجد هذا الاختلاف والتفاوت في أفراد سائر الموجودات. فهناك الشقيّ الذي بلغ قمّة الشقاوة، وهناك السعيد الذي وصل إلى كمال السعادة، وبعض من هو

---

١ ــ راجع الآداب المعنوية : ٤٧٣.

٢ ــ راجع : نفس المصدر.

٣ ــ نفس المصدر : ٤٧٣.

اســـفل من جميع الحيوانات، وبعض آخر أشرف من جميع الملائكة المقرّبين، والقرآن الكريم قد طوى المنازل والمراحل، وتنزّل من مقام الغيب إلى معرض الشهادة والتطوّر بـــالأطوار المـــلكيّة بكســـوة الألفـــاظ والحـــروف، ليكون في متناول يد البشرية ((لاســـتخلاص المسجونين في سجن الدنيا المظلم، وخلاص المغلولين بأغلال الآمال والأمـــاني، وإنقاذهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوّة الإنســـانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين، بل الوصول إلى مقام القرب وحصول مرتبة لقاء الله، التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم)).

الحقيقة الثالثة : الظهور والبطون القرآنيّة

وانطلاقـــاً مـــن الحقيقة الثانية فإن للقرآن ظهوراً وبطوناً باختلاف الأعماق التي يستطيع أن يصلها السالك إلى الله .. فإنه كلّما صعد السالك في منازل السلوك كلّما استطاع أن يطّلع على مرتبة أعلى من مراتب البطون .. حيث إن ((البطون عبارة عن الرجوع من الشهادة المطلقة إلى الغيب المطلق))[١]. ((والسالك إذا وصل إلى أي مرتبة من مراتب البطون فقد تخلّص من مرتبة من مراتب التحريف، إلى أن يصل إلى البطون المطلقة وهي البطن السابعة))، فإن أحد معاني التحريف ((هو التنزّل القرآني عن مقام الغيـــب إلى مواطـــن الشهادة .. والتكسّي بكسوة الألفاظ والحروف)). ولهذا فإن ((مـــراتب الـــتحريف وإن كان مطابقاً لعدد مراتب بطون القرآن، بيد أن التحريف عبارة عن التنزّل، والبطون عبارة عن الرجوع المذكور)).

من هذا المنطلق تنوّعت الاتجاهات والأبعاد في تفسير الآيات المباركة، تبعاً لعمق الـــنظرة ودقـــتها، حيث إن البطن تمثل المعنى الأدق، ووجود معنى أكبر دقّة من المعنى الثاني يكون بمثابة بطن البطن .. وهكذا[٢].

---

١ ــــ نفس المصدر : ٣١٩.

٢ ــــ راجع : الإمام الخميني : الأربعون حديثاً : ٦٦٩.

وبهذا يكون المعنى الثاني بطناً بالنسبة للمعنى الأول، وظهراً بالنسبة للمعنى الثالث، كما يكون المعنى الثالث بطناً بالنسبة للمعنى الثاني، وظهراً بالنسبة للمعنى الرابع الذي يكـــون أكبر عمقاً وأكثر دقة .. وهكذا إلى سبعة أظهر وأبطن، بل إلى سبعين. يقول مفسّرنا: ((اعلم أنه كما أن للكتاب التدويني الإلهي بطوناً سبعة باعتبار، وسبعين بطناً بوجـــه، لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، ولا يمسّها إلاّ المطهّرون من الأحداث المعـــنويّة، والأخـــلاق الرذيلة السيئة، والمتحلّون بالفضائل العلميّة والعمليّة، وكل من كان تنزّهه وتقدّسه اكثر كان تجلّي القرآن له أكثر، وحظّه من حقائقه أوفر، كذلك الكـــتب التكوينيّة الإلهيّة الأنفسيّة والآفاقية .. فإن لها بطوناً سبعة أو سبعين لا يعلم تأويـــلها وتفســـيرها إلا المتزّهـــون من أرجاس عالم الطبيعة وأحداثها، ولا يمسّه إلاّ المطهّرون، فإنها أيضاً نازلة من الربّ الرحيم))[1].

ويحـــذر الإمام من الوقوف على الظاهر، لأن ((العكوف على عالم الظاهر وعدم الـــتجاوز إلى الـــلب والباطن اخترام وهلاك، واصل أصول الجهالات، وأسس أساس إنكار النبوّات والولايات، فإن أول من وقف على الظاهر وعمي قلبه عن حظّ الباطن هو إبليس اللعين حيث نظر إلى ظاهر آدم (ع) فاشتبه عليه الأمر وقال: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)[2]))[3].

كمـــا يحذّرنـــا من الخروج عن الظاهر والانصراف عنه، لأن طريق الباطن هو الظاهـــر، ولا يمكن تحصيل الباطن إلا من خلال الظاهر.. حيث يقول: ((وليعلم أهل الـــباطن أن الوصول إلى المقصد والغاية الحقيقية لا يمكن إلا بتطهير الظاهر والباطن، وبدون التشبّث بالصورة والظاهر لا يمكن الوصول إلى اللب والباطن، وبدون التلبّس

---

١ ـــ الإمام الخميني : شرح دعاء السحر : ٧١.

٢ ـــ سورة الأعراف : ١٢، سورة ص : ٧٦.

٣ ـــ شرح دعاء السحر : ٧٢.

بلــباس ظاهـــر الشريعة لا يوجد الطريق إلى الباطن، ففي ترك الظاهر إبطال لظاهر الشريعة وباطنها، وهذا من تلبيسات شياطين الجن والإنس))[1] .

ويُسمّى الظاهر المنفصل عن الباطن ((الظاهر المطعون))، ويعتبر الدعوة إلى هجر الظاهــر ((كلمة حقّ يراد بها باطل))، حيث يقول ((إن الظاهر المطعون هو الظاهر المنفصــل عــن الباطن، والصورة المنعزلة عن المعنى، فإنه ليس بكتاب ولا قرآن. وأما الصــورة المــربوطة بالمعنى، والعلن الموصول بالسّر فهو المتّبع على لسان الله ورسوله وأوليائــه عليهم السلام. كيف؟! وعلم ظواهر الكتاب والسنة من أجلّ العلوم قدراً وارفعهــا مترلة، هو أساس الأعمال الظاهرية والتكاليف الإلهيّة والنواميس الشرعيّة، والشرائع الإلهية والحكمة العلمية التي هي الطريق المستقيم إلى الأسرار الربوبيّة والأنوار الغيــبيّة والتجــليّات الإلهية، ولولا الظاهر لما وصل سالك إلى كماله ولا مجاهد إلى مآله))[2] .

من هذا المنطلق يقول مفسّرنا: ((من تمسّك بالظاهر ووقف على بابه قصَّر وعطل .. ومــن ســلك طريق الباطن بلا نظر إلى الظاهر ضلّ وأضلّ .. ومن أخذ الظاهر وتمسّــك بــه للوصول إلى الحقائق ونظر إلى المرآة لرؤية جمال المحبوب فقد هدي إلى الصراط المستقيم، وتلا الكتاب حق تلاوته))[3] .

الحقيقة الرابعة : إدراك الأوصياء لجميع البطون دون غيرهم

وانطلاقــاً من الحقيقة الثالثة ندرك معنى اختصاص معرفة القرآن بمن خوطب به، فــإن ((فهم عظمة كل شيء بفهم حقيقته، وحقيقة القرآن الشريف قبل تترّله .. من الشؤون الذاتيّة والحقائق العلميّة للحضرة الواحديّة، وهو حقيقة الكلام النفسي الذي هــو مقارعــة ذاتيّة في الحضرة الأسمائية)) وهذه الحقيقة ((لا تحصل لأحد لا بالعلوم

---

١ ــ الآداب المعنوية : ٤٤٦.

٢ ــ شرح دعاء السحر : ٧٤.

٣ ــ شرح دعاء السحر : ٧٤ ــ ٧٥.

الرسميّة ولا بالمعارف القلبية ولا بالمكاشفات الغيبيّة إلاّ بالمكاشفات التامّة الإلهية لذات النبي الخاتم المباركة .. وأيدي آمال العائلة البشريّة قاصرة عنها إلاّ الخلّص من أولياء الله الذين اشتركوا في روحانيّة تلك الذات المقدّسة بحسب الأنوار المعنويّة والحقائق الإلهيّة)). فهؤلاء ((تنعكس حقيقة القرآن في قلوبهم بنفس النورانيّة والكمال الذي تجلى لقلبه المبارك، من دون التترّل إلى المنازل والتطوّر بالأطوار))[1].

هكذا يفهم مفسّرنا الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: ((ما يستطيع أحد أن يدّعي أن عنده القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء))[2]، ((وعندنا والله علم الكتاب كلّه)).

الحقيقة الخامسة : التوحيد أصل مقاصد القرآن

مع تنوّع مقاصد القرآن وأهدافه، و أن جميع مقاصده ((ترجع إلى مقصد واحد وهو حقيقة التوحيد))، لأن أصل مقاصد القرآن هو تكميل معرفة الله وتحصيل التوحيدات الثلاثة (الذاتي ، والأسمائي ، والأفعالي)، والرابطة فيما بين الحق والخلق، وكيفيّة السلوك إلى الله، وكيفيّة رجوع الحقائق، وتعريف التجلّيات الإلهية جمعاً وتفصيلاً وفرداً وتركيباً، وإرشاد الخلق سلوكاً وتحقيقاً، وتعليم العباد علماً وعملاً وعرفاناً وشهوداً))[3].

وقد جمعت مقاصد القرآن في سورة واحدة، وهي سورة الفاتحة، التي تضمّنت حقائق التوحيد وسرائره .. ولهذا اعتبرت ((أم الكتاب)) و ((أساس القرآن))، بل وجُعلت بإزاء القرآن في قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم)[4].

---

١ ــ الآداب المعنوية : ٣١٨ ــ ٣١٩.

٢ ــ راجع : شرح دعاء السحر : ٧٢.

٣ ــ الآداب المعنوية : ٤٥٢.

٤ ــ الآداب المعنوية : ٤٥٢.

تعلّم الأسماء : بين القوة والفعل

هـــذه الحقيقة ذاتها بنى العلامة الطباطبائي عليها تفسيره حيث يقول: ((فالآيات القرآنية على احتوائها تفاصيل هذه المعارف الإلهية والحقائق الحقة، تعتمد على حقيقة واحـــدة وهـــي الأصل وتلك فروعه،وهي الأساس الذي بني عليه بنيان الدين، وهو توحيـــده تعـــالى توحيد الإسلام...)) ثم يقول: ((أصل يرجع إليه على إجماله جميع تفاصيل المعاني القرآنية من معارفها وشرائعها بالتحليل، وهو يعود إليها على ما بها من التفصيل بالتركيب))[1]. وفي تفسيره لقوله تعالى (وعلّم آدم الأسماء كلها) يؤكد الإمام على أمور أربعة[2]:

الأمر الأول: إن ((تعليم الأسماء)) هو ((علّة امتياز آدم (ع)، وسموّه على ملائكة الله))[3]، فقد جاءت هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن تقديم الملائكة نفسها كبديل عن الإنسان في الخلافة: (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلّم آدم الأسماء كلها)[4].

الأمـــر الـــثاني: أن كـــل إنسان مودع في فطرته ((تعلّم الأسماء))، بيد أنه على مســـتوى القـــوّة لا الفعل والظهور. ولهذا كان على الإنسان أن يسعى في ((أن ينقل فطرة ((تعلم الأسماء)) المودعة في خميرة ذاته .. إلى الفعل، ويحرص على إظهارها))[5].

الأمـــر الثالث: إن تحويل القوّة إلى فعل لتجسيد الأسماء في الشخصيّة كامن لدى كل إنسان .. غير أن ذلك يحتاج إلى جهود كبيرة، ومساع حثيثة، وارتياضات قلبيّة، مـــن أجـــل ((أن يُصـــبح مظهراً لأسماء الله، وآية إلهيّة كبرى، ووجوداً ربّانياً، ويداً للجمال والجلال الإلهيّة)) تجسيداً للحديث الصحيح ((وإنه (العبد) ليتقرب إليّ بالنافلة

---

١ ـــ الطباطبائي : الميزان : ١٠ : ١٣٥.

٢ ـــ لم يذكر الإمام ذلك على شكل نقاط.

٣ ـــ الآداب : ٣١٨.

٤ ـــ سورة البقرة : ٣٠ ـــ ٣١.

٥ ـــ الآداب : ٣٣٢.

حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها ...))[1]. على ضوء هذه الحقيقة يفهم مفسّرنا الآيات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والتي قد يستنكرها البعض لأول وهلة، كحديث ((نحن أسماؤه الحسنى)) وقول علي (ع) ((وأنا يمين الله ولسانه الصادق ويده)).

حيث يقول: ((يستطيع الإنسان أن يصبح مظهراً لأسماء الله وآية إلهيّة كبرى .. بالارتياضات القلبيّة))[2] من خلال ((الخلوة بالحق، وكثرة الذكر، وشدّة التفكّر في الشؤون الإلهية، حتى يبلغ الأمر أن يصبح القلب حقانيّاً إلهيّاً))[3].

الأمر الرابع ((إن أسمى مرتبة لتعلّم الأسماء، هي التحقق بمقام أسماء الله، مثلما أن أسمى مرتبة لإحصاء الأسماء هي التحقق بحقيقتها))[4].

ب ـ آيات الرؤية والشهود

(وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين)[5].

(كلا لو تعلمون علم اليقين ◦ لترون الجحيم)[6]. (فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً)[7].

يظهر من هذه الآيات المباركة وغيرها أنه تعالى ((يثبت في كلامه قسماً من الرؤية والمشاهدة وراء الرؤية البصريّة الحسيّة، وهي نوع شعور في الإنسان يشعر بالشيء بنفسه من غير استعمال آلة حسيّة أو فكريّة، وان للإنسان شعوراً بربّه غير ما

---

١ ــ الآداب : ٣١٩.

٢ ــ الآداب : ٣١٨ ــ ٣١٩.

٣ ــ نفس المصدر : ٣٣٢.

٤ ــ نفس المصدر: ٣١٩.

٥ ــ سورة الأنعام : ٧٥.

٦ ــ سورة التكاثر : ٥ ــ ٦.

٧ ــ سورة الأعراف : ١٤٣.

يعتقد بوجوده من طريق الفكر واستخدام الدليل، بل يجده وجداناً من غير أن يحجبه عنه حجاب، ولا يجرّه إلى الغفلة عنه إلاّ اشتغاله بنفسه وبمعاصيه التي اكتسبها)) ولولاها لنال ((شرف المشاهدة)). (كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون • كلاّ إنهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون)[1]. وفي هذه الآية دلالة واضحة ((على أن الذي يحجبهم عنه ـــ تعالى ـــ رين المعاصي والذنوب التي اكتسبوها، فحال بين قلوبهم أي أنفسهم وبين ربّهم فحجبهم عن تشريف المشاهدة))[2].

ولهذا يؤكد صاحب تفسير الميزان أن الكشف والشهود ((حقيقة قرآنية لا مجال لإنكارها)) وأن ثبوت هذه الحقيقة لا ينافي تأكيد القرآن ((طريق التفكير الفطري الذي فطر عليه الإنسان وبنى عليه بنية الحياة الإنسانية، فإن هذا الطريق غير فكري، وموهبة إلهيّة يختص بها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين))[3]. حيث إن دخول الإنسان في حظيرة الولاية الإلهيّة، وتقرّبه إلى ساحة القدس والكبرياء يفتح له باباً إلى ملكوت السماوات والأرض، يشاهد منه ما خفي على غيره من آيات الله الكبرى، وأنوار جبروته التي لا تطفأ. قال الصادق (ع): (لولا أن الشياطين يحومون حول قلب بني آدم لرأوا ملكوت السماوات والأرض)). وفيما رواه الجمهور عن النبي (ص) قال: ((لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع))، وقد قال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)[4]، ويدل على ذلك ظاهر قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[5]، حيث فرّع اليقين على العبادة، وقال تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من

---

١ ـــ سورة المطفّفين : ١٤ ـــ ١٥.

٢ ـــ الطباطبائي : الميزان : ١٠ : ٢٤٠.

٣ ـــ الميزان : ٥ : ٢٧١.

٤ ـــ سورة العنكبوت : ٦٩.

٥ ـــ سورة الحجر : ٩٩.

الموقنين)[1]، فربط وصف الإيقان بمشاهدة الملكوت، وقال تعالى: (كلاّ لو تعلمون علم اليقين • لترون الجحيم • ثم لترونّها عين اليقين)[2]. وقال تعالى: (إن كتاب الأبرار لفي علّيين • وما أدراك ما علّيون • كتاب مرقوم • يشهده المقرّبون)[3]))[4].

وعلى ضوء ذلك ركّز الإمام على ضرورة السعي إلى رفع الحجب لا جمع الكتب، للوصول إلى لقاء الله .. ولتحقيق الرؤية والشهود ..وذلك يتحقق عن طريق المجاهدة والارتياض، لأن السالك إذا خرق الحجب الظلمانية فإنه سيرى ((ظهور الحقّ في كل الأشياء وإحاطته بها، وإنها آياته وبيناته الدالة بكمالاتها على كمال منشئها وبارئها))[5]: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحق)[6].

وقال الصادق (ع): ((ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه بعده)) حيث أن ((السالك البالغ إلى هذا المقام يرى كلّ شيء آية لما في الغيب، فإن كل موجود حتى الجماد والنبات كتاب إلهي يقرأ السالك إلى الله والمجاهد في سبيله منه الأسماء والصفات الإلهيّة، بمقدار الوعاء الوجودي له))[7].

وحتى مقام ((ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده)) يعد بالنسبة لخلّص الأولياء مقاماً عادياً، إذ إن ذكر ((الشيء)) لا زال موجوداً فإن هؤلاء الأولياء قد طووا مرحلة رؤية الحق ــ تعالى ــ في الخلق .. فلا أثر لغبار الخلق على مرآة مشاهدتهم .. بعد أن تعلّقت قلوبهم بتجلّيات أسماء الحق تعالى، فلم يعودوا يشاهدون سوى مظاهر تجلّي الأسماء))[8].

---

١ ــ سورة الأنعام : ٧٥.

٢ ــ سورة التكاثر : ٥ ــ ٧.

٣ ــ سورة المطفّفين : ١٨ ــ ٢١.

٤ ــ الميزان : ٥ : ٢٧١.

٥ ــ شرح دعاء السحر : ١٥٨.

٦ ــ سورة فصّلت : ٥٣.

٧ ــ شرح دعاء السحر : ١٥٦.

٨ ــ وصية الإمام لابنه أحمد.

ج ـ آيات المعارف الإلهية

(هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)[1].

(قـــل هو الله أحد • الله الصمد)[2]. (وهو معكم أينما كنتم)[3]. يؤكد الإمام أن القرآن الكريم ((مشحون بالأخبار حول العلم بذات الله وكمالاته وأسمائه)). بل إن المعـــرفة بـــذات الله هـــي غاية ما يقصده الأنبياء والأولياء، وأنه لابد من التمييز بين ((الـــتفكّر في الذات)) وبين التفكّر في ((اكتناه الذات)) الممنوع لاستحالته، حتى لا يقـــع الخلط بين التفكيرين، وهذا الخلط هو الذي ((جعل (الجهلاء) المتلبسين بلباس أهـــل العلم يرمون أهل المعرفة بكل شتيمة واتهام))، مما سبب ذلك ((انحراف قلوب عـــباد الله عـــن العـــلم بالمـــبدأ والمعاد، وكانوا سبباً في تفريق الكلمة وتشتت شمل المسلمين))[4].

كمـــا ويؤكّـــد أن تفســـير سورة الحديد والآيات الأولى منها ((أكبر من طاقة استيعاب أمثالنا، وأعظم من قدراتنا الفكريّة والعقليّة)). وعند وقوفه على الآية الثالثة مـــن ســـورة الحديد (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) يقول: ((إن منتهى سلوك السالكين، وغاية آمال العارفين، هو في فهم هذه الآية الشريفة المحكمة. وقَسَماً بذاته العزيزة لا توجد كلمة للتعبير عن حقيقة التوحيد الذاتي، أسمى وأفضل من هذا التعبير. وينـــبغي على كل أصحاب المعارف، السجود أمام هذا العرفان التام المحمدي، وأمام هـــذا الكشـــف الجامع الأحمدي، وهذه الآية المحكمة الإلهية، والسقوط على التراب إذلالاً لهـــا. وقســـماً بحقيقـــة العرفان والعشق إن العارف المجذوب، والعاشق لجمال

---

١ ـــ سورة الحديد : ٣.

٢ـــ سورة الإخلاص : ١ ـــ ٢.

٣ ـــ سورة الحديد : ٤.

٤ ـــ الأربعون حديثاً : ٢٢٥.

المحـــبوب، عندما يسمع هذه الآية الشريفة تستولي عليه هزّة ملكوتية، وانبساط إلهي، يقصر عن استيعابه آي موجود من الكائنات، ويعجز عن شرحه البيان))[1].

وبهـــذه المناسبة ينقل مقولة للفيلسوف الكبير صدر المتألّهين في خصوص الآيات الأولى من سورة الحديد: ((فلو ساعد الزمان وأعان الدهر عارفاً ربانياً أو حكيماً إلهياً قـــد استوحى علمه من مشكاة النبوّة المحمدية ... واستقى فلسفته من أحاديث أهل العصمة والطهارة .. لكان من حق ذلك العارف أو الحكيم، ومن حقّ تلك الآيات، أن يضع لتفسير كلّ آية مجلّداً واسعاً بل مجلّدات كثيرة))[2].

لـــذا يؤكد مفسّرنا ضرورة الترويض والمجاهدة إلى جانب الحكمة والفلسفة، من أجل استيعاب آيات التوحيد القرآنيّة: ((ولا يحسبنّ إنسان بأنه يستطيع بفكره وتأمله، وعـــلى أساس الظهور العرفي، استيعاب آيات التوحيد))، بل أن هذا التصور ((ما هو إلا وهـــم فارغ، ووسوسة شيطانيّة))، وإن الشيطان الصاد لطريق الإنسانية قد نصب كميـــناً للأنســـان، يمـــنعه عن المعارف الإلهية ((بمثل هذه الأوهام الواهية .. من أنه يســـتطيع أن يفهـــم القـــرآن بنفسه، ويتعرّف على المعارف الإلهيّة بمراجعة آيات الله الكريمة والأحاديث الشريفة، من دون حاجة إلى فلسفة وترويض ومجاهدة))[3].

وهكـــذا عرفنا بإيجاز أهم الأدلّة القرآنيّة التي يوردها المفسّرون العرفانيّون على مشروعيّة منهجهم التفسيري، من خلال النقاط الثلاثة السابقة بحقائقها، لننتقل بعدها إلى دليلهم الثاني.

ثانيا : *الروايات الشريفة*

إنّ الدليـــل الـــثاني بعد القرآن الكريم، على شرعية منهج الكشف والشهود في الوصول إلى الحقائق القرآنية، واستيعاب دلالاتها وأسرارها، هو الروايات الشريفة التي

---

١ ــ الأربعون حديثاً : ٧٠٥.

٢ ــ نفس المصدر : ٦٩.

٣ ــ نفس المصدر : ٧٠٩.

تؤكد أن طريق المشاهدة العرفانية والرؤية القلبية، يُعد طريقاً من طرق المعرفة وتحصيل المعـــارف الإلهيـــة، وهو غير طريق الاستدلال والبرهان. يقول العلامة الطباطبائي في تفســـيره الميـــزان: ((وهـــي أخبار مستقيمة صحيحة، يشهد على صحتها الكتاب الإلهي))[1]. ولا يسعنا إلا أن نذكر بعض هذه الروايات:

الرواية الأولى: عن محمد بن الفضيل قال سألت أبا الحسن (ع): هل رأى رسول الله (ص) ربّـــه عـــز وجل؟ قال: نعم، بقلبه رآه، أما سمعت الله عزّ وجل يقول: (ما كذب الفؤاد ما رأى)؟ لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد[2].

الرواية الثانية: عن أمير المؤمنين (ع) في المناجاة الشعبانيّة: ((إلهي هب لي كمال الانقطـــاع إليـــك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حُجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعز قدسك)).

يقـــول مفسّرنا الإمام: ((يكفي لأصل المعرفة هذا الحديث الواحد، حتى ينفقوا جلّ عمرهم لتحصيل الحب الإلهي، ويتمتّعوا بالإقبال على الله)). ويعلن عن حرماننا عـــن ((الاستيعاب العلمي)) لمعنى ((معدن العظمة والجلال وعز القدس والكمال .. فكيف بتذوقه وشهوده؟!))[3].

الرواية الثالثة: عن الصادق (ع) ((ومن زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك، لأن الحجاب والمثال والصورة غيره. وإنما هو واحد موحَّد، فكيف يوحِّـــد مَن زعم أنه عرفه بغيره؟ إنما عرف الله من عرفه بالله، فمن لم يعرفه به فليس يعـــرفه، إنما يعرف غيره. ليس بين الخالق والمخلوق شيء، والله خالق الأشياء لا من شيء ...)).

---

١ ـــ الميزان : ٦ : ١٧٦.

٢ ـــ الميزان : ٨ : ٢٦٥.

٣ ـــ الأربعون حديثاً : ٤٦٥.

يؤكــد العلامة الطباطبائي في ميزانه أن هذه الرواية تثبت ((أن هذه المعرفة غير المعرفة التي تحصل عن طريق الأدلّة والآيات)) بل ((إن القصر على المعرفة الاستدلالية لا يخلو من جهل بالله وشرك خفي))[1] ثم يقول:

((واعـــلم أن الـــروايات من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جداً، لا حاجـــة إلى إيرادها على كثرتها. واعلم أننا لم نورد بحثاً فلسفياً في مسألة الرؤية، لأن الذي تتضمنه غالب ما أوردناه من الروايات من البيان بيان فلسفي، فلم تمس الحاجة إلى عقد بحث على حدة))[2].

يعطي الإمام قاعدة كليّة في التعامل مع أمثال تلك الروايات التي تتضمن المعارف الإلهيـــة .. وهـــي أن ((تفسير الأخبار المأثورة عنهم ــ عليهم السلام ــ في العقائد ومعارف أصول الدين، على أساس الفهم العرفي الشائع، لا يكون سديداً وصحيحاً)) ذلـــك لأنها ((تحـــتوي على أدق المعاني الفلسفية وقمّة معارف أهل المعرفة))، وإن التفســـير العرفاني الدقيق للروايات ((لا يتنافى مع صياغة أئمة أهل المعرفة العلماء بالله لكلامهـــم الشـــريف في أسلوب جامع، تقطف كلّ طائفة حسب مسلكها قدراً من الثمار، ولا يحق لأحد أن يقصر الحديث في المعنى الذي ارتآه))[3].

ثالثاً : التكامل بين العرفان والبرهان

يحســـب البعض أنّ هناك تضاداً وتقاطعاً بين الفلسفة والعرفان، وأن أهل العرفان بعيـــدون عن الاستدلال والبرهان، لأنهم يعتمدون على الكشف والذوق والشهود. ولكـــن الحقيقة غير ذلك تماماً .. فإن بين العرفان والبرهان تعاضداً وتكاملاً .. حيث يضـــطلعُ كـــلٌّ منهما بدوره في تكامل الإنسان ووصوله إلى أرقى درجات الكمال العـــلمي والعملي. فلا يمكن الوصول إلى العرفان الحقيقي من دون برهان .. ولا قيمة

---

١ ــ الميزان : ٨ : ٢٦٥.

٢ ــ الميزان : ٨ : ٢٥٨.

٣ ــ الأربعون : ٦٦٨.

للبرهان من دون عرفان .. وسيتّضح ذلك تماماً حينما نتحدّث عن دور كلّ منهما تجاه الآخر.

دور البرهان في العرفان

يمكننا تشخيص ثلاثة أدوار أساسيّة:

الدور الأول : البرهان طريق العرفان

إن البرهان هو الطريق الأسلم والوسيلة الأضمن لوصول السالك إلى مرحلة الكشف والشهود .. حيث تُكتب حقائق العلوم التي اكتسبها عن طريق الحكمة والفلسفة بقلم العقل على لوح القلب.

ولهذا كان واجباً على العارف أن يكون فيلسوفاً وحكيماً، فإنّ ((محصول فكر الحكيم بذر مشاهد العارف)) كما يقول العارف الحكيم صدر المتألّهين، لأن الفلسفة لديه هي ((استكمال النفس الإنسانية بمعرفة الموجودات على ما هي عليها، والحكم بوجودها، تحقيقاً بالبراهين لا أخذاً بالظن والتقليد، بقدر الوسع الإنساني))[١] وبعد أن يستنير القلب بالحقائق البرهانية والمعارف الفلسفية والشواهد النقليّة من الكتاب والسنّة، وبعد أن تنحدر هذه المعارف والحقائق من دراسة العقل إلى ميدان القلب، تحصل ما يصطلح عليه العرفانيون بحالة الشهود والكشف، فالفكر يولّد الذكر، والعلم تتمخّض عنه المعرفة والمشاهدة، فيما إذا انتقل الفكر والعمل من العقل إلى القلب: (كلا لو تعلمون علم اليقين ▪ لترون الجحيم)[٢].

والعلاقة واضحة بين اليقين والمشاهدة، والاقتران ظاهر بين البرهان والعرفان. يقول العارف الأصفهاني في رسالته (قواعد التوحيد):

((لابد للسالكين من أصحاب المجاهدة من أن يحصلوا العلوم الحقيقية الفكرية أولاً، بعد تصفية القلب بقطع العلائق المكدّرة والمظلمة، وتهذيب الأخلاق وتربيتها)).

---

١ ــ صدر المتألّهين : الحكمة المتعالية : ١ : ٢٧ ــ ٢٨، (تصحيح وتعليق حسن زادة آملي).

٢ ــ سورة التكاثر : ٥ ــ ٦.

ويبيّن مفسّرنا الإمام دور البرهان في الوصول إلى حقيقة التوحيد، وعيش المعاني الحقيقـــيّ للآيـــات المـــباركة مـــن أمثال: (لا إله إلاّ الله)[1] . (وله ما في السماوات والأرض)[2] . (بيده ملكوت كلّ شيء)[3] . حيث يقول: ((إن البرهان يقول لنا: إنه لا مؤثـــر في الوجود إلاّ الله، وهذا أحد معاني (لا إله إلاّ الله)، وببركة هذا البرهان نقطع يـــد تصرّف الموجودات عن ساحة كبرياء الوجود، ونرد ملكوت العوالم وملكها إلى صاحبها، ونُظهر حقيقة: (وله ما في السماوات والأرض). (بيده ملكوت كلّ شيء). (وهـــو الـــذي في السماء إله وفي الأرض إله)[4] ولكن لا بد من وصول هذا المطلب البرهاني إلى القلب، ليتحوّل إلى مطلب عرفاني))[5] .

ولهـــذا يـــرى مفسّـــرنا أنه ((من الخطأ إغماط دور الحقائق العقليّة، والمعارف الحكميّـــة، والـــنظر إليهـــا بأنها من معوقات السير العرفاني، كما يرى بعض علماء الأخـــلاق، الذيـــن حشروا أنفسهم في زاوية واحدة، وبُعد واحد، فراحوا يكفّرون الحكماء والفلاسفة))[6] .

وخلاصـــة القـــول: أن الاســـتدلال والـــبرهان هو الطريق الأقوم للمكاشفات والمشـــاهدات والعـــرفان، وإن لم يكن الطريق الوحيد. فقد تكون المشاهدات نتيجة ((العلوم الحقيقية))، أو قد تكون وليدة ((الأعمال القلبيّة))[7] .

الدور الثاني : البرهان ميزان العرفان

إن الـــبرهان يضـــطلع بـــدور الميزان الذي يشخص به العارف درجة شهوده، ويهذّب عرفانه من الالتباسات والخيالات الفاسدة، والأوهام والظنون الباطلة. ((فكم

---

١ ــ سورة محمد : ١١.

٢ ــ سورة النحل : ٥٢.

٣ ــ سورة المؤمنون : ٨٨.

٤ ــ سورة الزخرف : ٨٤.

٥ ــ الأربعون : ١٧٦.

٦ ــ راجع الأربعون : ٤٢٠ ــ ٤٢٢.

٧ ــ الأربعون : ٤٢٩.

مـــن صوفيّ بقي في خيال واحدٍ عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلوم من قبل، لتبيّن له وجه التباس ذلك الخيال في الحال))[1].

وعـــندما يقع السالك في حيرة .. يقوم البرهان بدوره في التشخيص والتهذيب، وبـــدلاً من أن يعيش الحيرة والتقوقع والجمود، يدفعه إلى الحركة و السعي والانطلاق للوصول إلى درجات أكبر ومقامات أسمى وأعلى.

من هنا فإن ((العرفان دون البرهان فيه خطر الغرق في بحرٍ لجيّ (إذا أخرج يده لم يكد يراها)[2]))[3].

ولهـــذا قـــال العـــرفاء: بـــأن البرهان ((يشخّص)) العرفان، وأنه ((تهذيب)) و ((ضرورة عقليّة للعرفان)).

الدور الثالث : البرهان صياغة للعرفان

إن الـــبرهان يصوغ العرفان صياغة فلسفية مأنوسة للأذهان، لتترجم المشاهدات الحضـــوريّة، والادراكات الباطنيّة، والتجلّيات القلبيّة، إلى مفاهيم فلسفيّة عميقة، بلغة بـــرهانيّة دقيقة، ليهتدي بها الآخرون. يقول الإمام: ((فالعرفاء الكُمّل لّما شهدوا ذلك ذوقـــاً وجدوه شهوداً، ووضعوا لما شهدوا اصطلاحات وصنعوا لما وجدوا عبارات، لجلب قلوب المتعلّمين إلى عالم الذكر الحكيم، وتنبيه الغافلين وإيقاظ الراقدين، لكمال رأفـــتهم بهـــم ورحمتهم عليهم؛ وإلا فالمشاهدات العرفانيّة والذوقيّات الوجدانيّة غير ممكـــنة الإظهـــار بالحقيقـــة؛ والاصطلاحات والألفاظ والعبارات للمتعلّمين طريق الصواب، وللكاملين حجاب في حجاب))[4].

ولهذا نجد في كلامهم التعبيرات الرمزيّة والإشارات والتشبيهات، فينبغي الحذر في قراءة نصوصهم واجتناب اتّباع المتشابه من تعبيراتهم. يقول مفسّرنا: ((إياك، ثم إياك،

---

١ ــ الهداية في القرآن : ١١٣.

٢ ــ سورة النور : ٤٠.

٣ ــ الهداية في القرآن : ١١٢.

٤ ــ مصباح الهداية.

والله حفيظــك في أولاك وآخــرتك، أن تتّبع ما تشابه من كلمات العرفاء السالكين وبيانات الأولياء الكاملين))[1].

إن العــارف الــذي لا يمتــلك العقلية البرهانيّة المحكمة، والذهن المتمرّس على الاســتدلال، لا يستطيع ـــ والحالة هذه ـــ أن تكون ترجمته سليمة، وصياغته عقليّة مقبولة وقويمة، وبالتالي لا يحالفه التوفيق في نقل العرفان وحقائقه إلى الآخرين..

يقول العرفاء: عن الوجودات الحضوريّة وإن كانت عظيمة وقويمة، بيد أن انتقالها إلى الآخرين ليس بالأمر اليسير .. بل هو صعب وعسير..

من هذا المنطلق نجد أهل العرفان الحقيقي كثيراً ما يقفون أمام آية قرآنية مباركة، عاجــزين عن ترجمة مشاعرهم الباطنيّة وجذباتهم الروحيّة تجاهها، مع ما يمتلكونه من عمــق فلســفي وقدرة فائقة على الصياغة والترجمة، فيعلنون عجز البيان عن التعبير وكلالة القلم عن الكتابة والتفسير.

ففــي تفسيره لقوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)[2] يصرّح مفسّرنا الإمــام بــأن ((منــتهى ســلوك السالكين، وغاية آمال العارفين هو فهم هذه الآية الشــريفة)). ولــذا فإنه في غمرة لذّة مشاهداته، وجذبة تذوّق عرفانه، راح يقول: ((قسماً بحقيقة العرفان والعشق، إن العارف المجذوب، والعاشق لجمال المحبوب، عندما يســمع هــذه الآيــة الشريفة، تستولي عليه هزّة ملكوتيّة، وانبساط إلهي، يقصر عن استيعابه أي موجود من الكائنات، ويعجز عن شرحه البيان))[3].

وفي الآيــة ذاتهــا يقول: ((ولكن البلاغة قاصرة عن شرحها، والقلم عاجز عن الخوض فيها، فلنتجاوز ولنترك إدراك واستيعاب ذلك لقلوب الأولياء والمحبّين))[4].

---

١ ـــ نفس المصدر : ٣٥.

٢ ـــ سورة الحديد : ٣.

٣ ـــ الأربعون : ٧٠٥.

٤ ـــ الأربعون : ٧٠٥.

مــن كــل تلك الأدوار الثلاثة للبرهان يمكننا أن نلخّص دوره في العرفان بإيجاز فــنقول: إن الــبرهان ضــرورة عقــليّة للعرفان، لكونه ممهداً وطريقاً أولاً، ومهذّباً ومشخّصــاً ثانيــاً، ومــترجماً وناقلاً ثالثاً. ممهداً لقواعد الوصول إلى عالم الكشف والشــهود، لــيجعل القــلب مستعداً لتجلّي الحق فيه، ومهذباً للنفوس والقلوب من الخيــالات الفاســدة والأوهــام الباطــلة، ليتم تمييز المشهودات وتشخيص صحّة المكاشفات، ومترجماً بكسوة الألفاظ والمفاهيم، حقائق العرفان والشهود إلى الآخرين، لتصاغ صياغة حكميّة فلسفيّة برهانيّة.

دور العرفان في البرهان

إنّ للعرفان دورين أساسيين بالنسبة إلى الفلسفة والبرهان:

الدور الأول : العرفان رؤيةٌ للبرهان

إن العــرفان شهود ورؤية للبرهان .. حيث يتحوّل الإدراك العقلي والاستيعاب العملي إلى إدراك قلبي، وتذوّق نفسي، وعندئذٍ تتدارك العارف والفيلسوف الألطاف الإلهيــة، وتتكشف له الحقائق الربانيّة، فيتطلع على أسرار لم يكن قد اطّلع عليها من قبل، وتنكشف رموز لم تكن منكشفة بهذا الوضوح في البرهان .. حينما يجد الإنسان نفســه ((متعــلّقة بالعظمة والكبرياء، متّصلة ــ في وجودها وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعهــا وبصــرها وإرادتها وحبها وسائر صفاتها وأفعالها ــ بما لا يتناهى بهاءً وسناءً وجمــالاً وجــلالاً وكمــالاً مــن الوجود والحياة والعلم والقدرة، وغيرها من كلّ كمال))[1].

مــن هــنا يؤكد المفسّر الحكيم العارف الطباطبائي على ضرورة رفع الحجب، والانقطــاع إلى الله ومشــاهدة ساحة العظمة والكبرياء من أجل الوصول إلى المعرفة الحقيقيّــة الأثــبت والأنفع والأكمل، ذلك لأن ((المعرفة الحقيقيّة لا تُستوفى بالعلم

---

١ ــ الميزان : ٦ : ١٧٢.

الفكري حق استيفائها))، وإن هناك ((أموراً من المواهب الإلهيّة المخصوصة بأوليائه لا ينتجها السير الفكري البتة))[1]، فإن المعرفة الفكرية التي يفيدها النظر في الآيات الآفاقية ســـواء حصـــلت من قياس أو حدس أو غير ذلك، فإنما هي معرفة بصورة ذهنيّة عن صورة ذهنيّة، وجلّ الإله أن يحيط به ذهن أو تساوي ذاته صورة مختلقة اختلقها خلق من خلق، ولا يحيطون به علماً))[2].

ولذلك فإن صاحب تفسير الميزان يعدُّ الاقتصار على المعرفة الاستدلالية لوناً من ألـــوان الجهل بالله أوّلاً، والشرك الخفي ثانياً، حيث نسمعه يقول: ((إن القصر على المعـــرفة الاستدلاليّة لا يخلو من جهل بالله وشرك خفي))[3].. ويقول المفسر والحكيم صدر المتألّهين: ((ونعم ما قيل: من لا كشف له لا علم له)).

من هذا المنطلق جاءت ((الحكمة المتعالية)) لصدر المتألهين .. ووجه تسميتها بـــ ((المتعالية))، لاعتمادها على الكشف والذوق والوجدان بالقياس إلى حكمة المشائين البحثيّة الصرفة، حيث ((إن حكمة المشائين حكمة بحثية صرفة، وهذه وأمثالها إنما تتم مـــع الـــبحث والنظر والكشف والذوق، فالحكمة المشتملة عليها متعالية بالقياس إلى الأولى))[4].

فنســـتمع إلى صدر المتألهين وهو يحدثنا في بداية كتابه القيّم ((الحكمة المتعالية))، وهو يتجاوز دائرة الاستدلال والبرهان إلى الشهود والعرفان، منتقلاً من ميدان العقل إلى ميدان القلب، قائلاً: ((...اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالاً نوريّاً، والتهب قـــلبي لكـــثرة الرياضات التهاباً قوياً، ففاضت عليها أنوار الملكوت، وحلّت بها خبايا الجبروت، ولحقتها الأضواء الأحدية، وتداركتها الألطاف الإلهية، فاطّلعتُ على أسرار لم أكن أطلع عليها إلى الآن، وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف في

---

١ ـــ الميزان : ٦ : ١٧٦.

٢ ـــ الميزان : ٦ : ١٧٦.

٣ ـــ الميزان : ٨ ٢٦٥.

٤ ـــ الحكمة المتعالية : ١ : ٢٠ الهامش.

البرهان، بل كل ما علمته من قبل بالبرهان، عاينته مع زوائد بالشهود والعيان، من الأسرار الإلهية، والحقائق الربانية، والودائع اللاهوتية، والخبايا الصمدانية، استروح العقل من أنوار الحق بكرة وعشيّاً، وقرب بها منه وخلص إليه نجيّاً...))[1].

يعتقد مفسّرنا الإمام أن هذا التحوّل العرفاني في الفلسفة جاء بفضل المعارف القرآنية التي تسمو بالإنسان من مرحلة الإثبات والاستدلال على مرحلة الشهود والعشق والوصال: ((لولا القرآن لكان باب معرفة الله مغلقاً إلى الأبد))[2].

ومع أن نظرة مفسّرنا إلى الفلسفة اليونانية قد اتسمت بالاحترام والإجلال، لما أسدته من خدمات كبيرة على يد أساطينها (أرسطو) و (افلاطون)، إلاّ أنه يعتبر أن الفلسفة اليونانية تمتاز بطابع ((الجفاف)) لأنها قد وقفت عند حد الاستدلال فحسب، وأن الفلاسفة المسلمين لهم دور كبير في تحويل تلك الفلسفات اليونانية الجافة إلى عرفان عيني، وشهود واقعي)).

ويشخّص الإمام (قدس) الخطأ الذي وقع به مَنْ ((ينسب فلسفة حكماء الإسلام اليوم والمعارف الجليلة لأهل المعرفة، إلى حكمة اليونان))، ويعدُّ ذلك ناشئاً:

أولاً: من عدم الاطّلاع على فلاسفة الإسلام من أمثال صدر المتألّهين والفيض الكاشاني والقاضي سعيد القمّي.

وثانياً: من عدم الاطّلاع على معارف القرآن وأحاديث المعصومين عليهم السلام.

وبسبب الجهل المزدوج هذا نسب هؤلاء ((كلّ حكمة إلى اليونان وظنّوا أنّ حكماء الإسلام ابتاعوا حكمة اليونان))[3].

---

١ ــ نفس المصدر : ١٤٣.

٢ ــ صحيفة نور : ١٧ : ٢٥١.

٣ ــ الآداب المعنوية : ٤٦٨.

إن الفلاسفة المسلمين لم يكن لهم دور الشرح لفلسفة اليونان فحسب، بل كانوا المبدعين فيها، خصوصاً في الإلهيات، فإننا ((عندما نرجع إلى الفلسفة ونقارن بين الفلسفة الإسلامية وفلسفة ما قبل الإسلام، نجد البعد بينهما بعد السماء عن الأرض))[1].

ومع كون مفسّرنا الإمام فيلسوفاً وحكيماً، وكونه أستاذاً للفلسفة والحكمة، بيد أنه شجب النظرة الغائية الى الفلسفة، وأكد ضرورة تجاوز دائرة الاستدلال العقلي والبرهان إلى دائرة الشهود والعرفان، حتى ((لا يصرف (السالك إلى الله) جميع عمره في الاستدلال الذي هو حجاب بل الحجاب الأعظم)). لأن ((القلب ما دام في حجاب البرهان، وخطوته هي خطوة التفكّر، لا يصل إلى أول مراتب الصدّيقين. وإذا ما خرج من حجاب العلم والبرهان السميك، فلا علاقة له بالتفكّر بل يفوز في آخر الأمر ومنتهى السلوك بمشاهدة جمال الجميل المطلق، من دون واسطة البرهان))[2]، فإن برهان الصدّيقين هو الصورة التي يظهرها العارف من مشاهداته ويضعها في قالب الألفاظ .. وهو في الحقيقة يمثّل رسم تجلّيات قلوب الصدّيقين، الذين يشهدون الأسماء والصفات بمشاهدة الذات، ويشهدون الأعيان والمظاهر في مرآة الأسماء[3].

الدور الثاني : العرفان توسيع لآفاق البرهان

إن العرفان يفتح آفاقاً رحبة في عالم الفلسفة والبرهان، حينما يصوغ العرفاء الفلاسفة، ما توصّلوا إليه عن طريق المكاشفة، صياغة حكميّة فلسفيّة واضحة ومقبولة، تدركها العقول وتستأنس بها الأذهان، وبالتالي تدخل إلى عالم الفلسفة مسائل جديدة وبحوث مستحدثة، لم يطرحها الفلاسفة من قبل.

---

١ ــ صحيفة نور : ٨ : ١٩١ بالفارسية.

٢ ــ الأربعون : ٢٢٣.

٣ ــ راجع : الأربعون : ٢٢٣ ــ ٢٢٤.

وقــد استطاع بعض المفسّرين العرفاء من أمثال ابن عربي وصدر المتألّهين ترجمة عــرفاهم ترجمة حكميّة، وصياغة مشاهداهم وتجلّياهم صياغة فلسفيّة، فتحت الآفاق الواسعة في عالم الحكمة والفلسفة.

لقــد بقيــت مسألة وحدة الوجود ــ مثلاً ــ التي طرحها أهل العرفان، يلفّها الغمــوض والالتــباس والإبهام، حتى إن العلماء لم يستطيعوا أن يحسموا الأمر بطبيعة الوحدة التي يدّعيها العرفاء .. هل هي وحدة شهود أو وحدة وجود؟ حتى جاء محيي الدين بن عربي، وتمكّن من صياغة المسألة بلغة فلسفية حكميّة جذّابة ورائعة.

يقول الشهيد مرتضى المطهري: ((إن ما توصل إليه العرفاء عن طريق المكاشفة، اســتطاع محيــي الديــن بن عربي أن يصوغه بطريقة تجعل الذهن يدركه ويتفهّمه ويســتأنس بــه، ثم دخلت هذه المسألة ــ بعد محيي الدين ــ في الفلسفة المشّائية، و الإشــراقيّة، وعلم الكلام، كما فُتِحَ لها في مسائل العرفان، وقد دخلت في فلسفة ملا صــدرا بشــكلها الخاص. فمسألة وحدة الوجود ذات اصل عرفاني، وما ذكره ملا صــدرا في فلسفته حول وحدة الوجود قد استعاره من العرفان، وليست المسألة من إبداعــات ملاّ صدرا كما قد يُعتقد. وقد تمكن ملاّ صدرا من تأسيس قواعد فلسفيّة بهــذه المسألة، كما صاغها صياغة فلسفية لتدخل الدراسات الفلسفية بعد أن كانت حكــراً على العرفان. وبناءً على ذلك كان جميع ما أفاده ملاّ صدرا هو بمثابة الشرح الفلسفي لمسألة بحثها العرفاء من قبل))[١].

وبذلك يكون صدر المتألّهين هو أول من أدخل مسألة وحدة الوجود في مباحث الفلســفة، مستثمراً مسألة النور بشكل جيّد وموفق، لكي يوضح مقصوده، بعد أن استعار كل المراتب التي ذكرها من شيخ الإشراق للنور وطبّقها على الوجود[٢].

---

١ ــ الشهيد مرتضى المطهري : شرح المنظومة : ١ : ١٦٣، ترجمة : عبد الجبار الرفاعي.

٢ ــ راجع : نفس المصدر : ١٧٠ ــ ١٦٩. الهامش.

مـــن هنا ندرك مدى دور العرفان في فتح آفاق فلسفيّة جديدة ورحبة، وإبداع مســائل قيّمــة في عـــالم الفلسفة والحكمة، كما ندرك مدى أهمية البرهان في ترجمة العرفان، من خلال صياغة المشاهدات والتجلّيات صياغة فلسفية واضحة ومقبولة.

وقد امتاز أستاذ الإمام في العرفان الشاه آبادي، ببراعته في الترجمة والصياغة، وقد اقتبس منه بعضاً من تلكم التفسيرات الحكميّة في نظريّته الكشفيّة الشهودية إلى الآيات القرآنيّة. ويمكنك الرجوع إلى التفسير الحكمي لسورة التوحيد المباركة الذي استفاده عـــن أســتاذه، وهـــو ((تفسير حكمي موافق للموازين الحكميّة والبراهين الفلسفيّة ...وهو برهان على ستة براهين شامخة حكميّة))[1].

المنهج الثالث : النقلي الروائي

لقد اعتمد مفسّرنا على الروايات المفسِّرة المنقولة عن الرسول الأكرم (ص) وأهل بيــته عــليهم السلام باعتبارهم يمثّلون الثقل الكبير إلى جانب الثقل الأكبر (القرآن الكريم)، حتى إنّه بدأ وصيته السياسية العبادية بحديث الثقلين ((إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)). وهذه البداية لها دلالاتها وأبعادها.

يؤكّد الإمام أنّ ((حديث الثقلين متواترٌ بين جميع المسلمين، ومنقول بالتواتر عن الـــنبيّ في كـــتب أهل السنّة، ابتداءً من الصحاح الستة وحتى كتبهم الأخرى بألفاظ مختلفة وفي مواقع متكرّرة)) ولهذا فإنّ ((هذا الحديث الشريف حجّة قاطعة على جميع البشـــر، وخاصّة المسلمين بمذاهبهم المختلفة، وعلى جميع الذين تمت عليهم الحجّة أنْ يتحمـــلوا مســـؤولية ذلـــك. وإن كان للجهلة الغافلين عذر، فليس لعلماء المذاهب عذر)).

---

١ ـــ الآداب المعنوية : ٤٧٥.

ويرى مفسرنا أنَّ جملة ((لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)) لعلّها تشير إلى أمرين الأوّل: أنَّ ما مرَّ على أحد هذين الاثنين بعد الوجود المقدّس لرسول الله (ص) قد مرَّ على الآخر.

الثاني: إنَّ مهجورية كل واحد منهما، مهجوريّة للآخر، حتى يرد هذان المهجوران الحوض على رسول الله (ص).

ولهذا فإنّ ((إقصاء المفسّرين الحقيقيين للقرآن والمطّلعين على الحقائق والآخذين جميع القرآن من النبي (ص))) كانت له نتائج مؤسفة وخسائر فادحة، من أهمها:

أولاً: إبعاد القرآن من الساحة، وإقصاؤه عن دوره القيادي والريادي.

ثانياً: مصادرة حكومة العدل الإلهي التي هي أحد أهداف القرآن ومقاصده.

ثالثاً: وضع أساس الانحراف عن دين الله والكتاب والسنّة الإلهية.

رابعاً: جعل القرآن وسيلة لإقامة الجور والفساد وتبرير ظلم الظالمين، بدلاً من أن يكون المنهج السماوي الذي يحقق القسط والعدل في العالم حرباً ضدَّ الطواغيت والمستكبرين.

خامساً: وبذلك تمَّ على يد المتآمرين الأعداء والجهلة الأصدقاء تعطيل دور القرآن، وإفراغه من محتواه، وتحريف الكلم عن موضعه، فأصبح لا دور له سوى في المقابر والمآتم[1].

ولقد عانى الأئمة عليهم السلام ((السجن والتشريد ... على طريق تطبيق القرآن الكريم وإقامة حكومة العدل الإلهي ... واستشهدوا في النهاية على طريق الإطاحة بالحكومات الطاغوتية الجائرة))[2].

يؤكّد مفسّرنا الإمام أن أهل البيت عليهم السلام هم ((المفسرون الحقيقيون للقرآن الكريم))، وهم الذين يستوعبون أسرار آياته بظهورها وبطونها، وهناك ((آيات

---

١ ــ راجع : وصيّة الإمام.

٢ ــ راجع : وصيّة الإمام.

لا يدركهـــا إلاّ الرســـول الأكـــرم (ص) ومن أخذ علومه، وإنما يمكن أن ندركها بواسطتهم))[1] . فهناك طريقان للاستفادة من القرآن الكريم:

الطـــريق المباشـــر: حيث يمكن إدراك الآيات المباركة من خلال التدبر والتفكّر، وإعمال العقل، ومجاهدة النفس، ورفع الحُجب المانعة من الاستفادة، باعتبار أن القرآن نزل لجميع الطبقات، يتناول منه كُلٌّ حسب استعداده ووسعه.

الطـــريق غير المباشر: حيث يمكن إدراك الآيات المباركة بالواسطة .. عن طريق الرســـول الأكرم (ص) وأئمة أهل البيت عليهم السلام، فإنّ هناك آيات لا يمكن أن ندركها إلاّ بواسطتهم.

ولهـــذا فـــإنّ مفسّـــرنا وإن كان قد اعتمد المنهجين العقلي البرهاني والشهودي العرفاني لكنّه حرص على أنْ يكون ذلك قائماً على ضوء الروايات الصحيحة الواردة عن أهل بيت النبوّة ومعدن الحكمة.

ويمكن أنْ نصنّف تلك الروايات إلى صنفين:

الأول : روايات الأحكام

وهي الروايات المفسّرة لآيات الأحكام والمفصلة لمجملها، فإنّ دور الرسول (ص) والأئمـــة عليهم السلام هو تفصيل ما أجمله القرآن من أحكام وتشريعات، لأنّ مثل هـــذه الآيات ((تقصر عنها أيدي الآراء والعقول، ولا بُدَّ من أنْ تُؤخذ بصرف التعبّد والانقياد)).

وقد مرّ علينا عند الحديث عن المنهج العقلي رأيه في معنى الحديث ((إنّ دين الله لا يُصـــاب بـــالعقول))، وأنّ الحديـــث ((من فسر القرآن برأيه)) قد يكون مختصّاً بالأحكام والتشريعات دون غيرها.

---

١ ـــ خطاب الإمام يوم المبعث النبوي ١٤٠١هـــ.

وفي هـــذا الصـــنف من الروايات يقول مفسّرنا بحجيّة خبر الثقة، على خلاف الأصول الاعتقادية التي لا يمكن أن نعتمد فيها على خبر الثقة، كما سنرى في الصنف الثاني[1].

ويـــرى أن الاستدلال على حديّة خبر الثقة بالسيرة العقلائية، ولا دليل غيرها .. لأنّه ((يقف على وجود السيرة العقلائيّة كل من لهُ إلمام بالمجتمعات البشرية منذُ دوّن تاريخ البشر، واستقرّ له التمدن، واتخذ لنفسه مسلكاً اجتماعياً)). وأنَّ ((ما ورد من الآيات الناهية عن العمل بغير العلم، أو العمل بالظنّ، ليست رادعة عن السيرة، إذ لو كانت رادعة لمطلق العمل بالظنّ أو بغير علم لشملت نفسها))[2].

وليس دور خبر الثقة يقف عند حد تفصيل ما أجمله القرآن من أحكام فحسب، بـــل عـــن خبر الثقة يقوم بدور التخصيص والتقييد لعموم القرآن ومطلقه، وإنْ كان الخبر ظنيّ السند والكتاب قطعي السند.

ولا يمكن أن تقف روايات من أمثال (ما خالف كتاب الله فهو زخرف) أو (ما خـــالف كتاب الله فاضربوا به عرض الحائط) أو (لم نقله) وغير ذلك من التعبيرات، لتمنع التخصيص أو التقييد، ذلك لأنّ التعارض بالعموم والخصوص وإن كان يُعدّ من الـــتعارض الحقيقي، إذ الموجبة الكليّة نقيضة السالبة الجزئية .. بيد أنّهُ لا يُعدّ اختلافاً وتناقضاً في دائرة التشريع والتقنين.

على أننا نجد في القرآن الكريم نفسه عامّاً وخاصّاً، ومطلقاً ومقيّداً، و لم يقل أحدٌ بأنّ ذلك من مصاديق الاختلاف الممنوع المقصود من قوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا في اختلافاً كثيراً)[3] ((وليس ذلك إلاّ عدم اعتبار التقييد والتخصيص اختلافاً وتناقضاً في محيط التشريع والتقنين)).

---

١ ــ تهذيب الأصول : ٢ : ١٩٨.

٢ ــ تهذيب الأصول: ٢ : ٢٠٠.

٣ ــ سورة النساء : ٨٢.

ولهذا يرى مفسّرنا أنّه ((لابُدّ من إرجاع تلك الأخبار إلى المخالفات الكليّة التي تـباين القرآن وتعارضه)). فقد كان باب الافتراء على الأئمة عليهم السلام مفتوحاً عـلى مصراعيه من قبل أعدائهم، الذين كانوا لا يألون جهداً بدسِّ الروايات المختلقة في كـتب أصحاب الإمام أبي جعفر الباقر (ع) من أجل أن يثبتوا ((انحطاط مقاماهم بالأكاذيب الموضوعة حتى يرجع الناس عن بابهم))[1].

الصنف الثاني : روايات المعارف الإلهية والعقائديّة

وفي هـذا الصـنف من الروايات لا يكون خبر الثقة حجّة بنظر الإمام، حيث يقول: ((ومعلوم أنَّ الأصول الاعتقادية، لا يعتدّ فيها بخبر الثقة))[2].

ويـرى أن روايـات المعارف الإلهية كما هي الآيات القرآنية تنقسم إلى محكمة ومتشابهة .. فلا بُدَّ من الحذر في التعامل مع الروايات المتشابهة.

وفي الوقـت الـذي يشجب فيه التعامل العقلي مع الأخبار والروايات الفقهيّة المـأثورة عن أهل البيت عليهم السلام التي يبعدها عن المعنى العرفي الارتكازي، فإنه يحـذّر من النظرة العرفيّة البسيطة في فهم الروايات المأثورة في مجال العقائد والمعارف الإلهيـة، لأنّهـا تتضـمن أدقّ المعاني الفلسفية وقمّة معارف أهل المعرفة. لذلك فإنّ تفسيرها ((على أساس الفهم العرفي الشائع لا يكون سديداً وصحيحاً))[3].

ولا يتـنافى هذا التفسير العرفاني الدقيق مع صياغة أئمة أهل المعرفة العلماء بالله، لكلامهـم الشـريف في أسلوب جامع، تقطف كلُّ طائفةٍ حسب مسلكها قدراً من الثمار، ولا يحقّ لأحدٍ أن يقصر الحديث في المعنى الذي ارتآه))[4]. ويعدُ مفسّرنا أنّه من ((غـرائب الأمور أنَّ بعضاً يطعن في هذه المعاني الدقيقة العرفانية والفلسفيّة ويعترض

---

1 ــ تهذيب الأصول : ٢ : ٥٨.

2 ــ تهذيب الأصول : ١٦٨.

3 ــ الأربعون : ٦٦٨.

4 ــ الأربعون : ٦٦٨.

عليها قائلاً: إنّ أحاديث أئمة الهدى ـــ عليهم السلام ـــ لتوجيه الناس، فلا بُدّ من أن تتوافق مع الفهم العرفي. ويجب أن لا تصدر عنهم المفاهيم الفلسفية أو العرفانيّة التي لا يـــنالها الفهم العرفي لعامة الناس))[1]. ((والأغرب من ذلك أن بعض هؤلاء المعترضين الرافضين لهذه المعاني الدقيقة قد تناولوا الأخبار الفقهية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام ودققوا فيها بدرجة يعجز عن فهمها العقل فضلاً عن العرف، وينسبون المعنى العميـــق الذي استخلصوه إلى الارتكاز العرفي، رغم أنّه من المسلّم به أنّ فهم الأخبار الفقهية موكولٌ إلى العرف))[2]!!

الموقف من الإخباريين

ومـــع اعتماد مفسّرنا على الروايات المفسِّرة، بيد أنه يرفض رفضاً قاطعاً مقولة الإخباريين القائلة بعدم حجيّة ظواهر الكتاب، ويردُّ جميع الوجوه التي استندوا عليها في إثبات مقولتهم تلك، وأهمها ثلاثة:

الوجـــه الأول: ادّعـــاء وقـــوع التحريف في الكتاب حسب أخبار كثيرة، وهو يوجب عروض الإجمال المانع من التمسك به.

الوجـــه الـــثاني: العـــلم الإجمـــالي بوقـــوع التخصيص والتقييد في العمومات والمطلقات، وهو يمنع من الاستدلال بالظهور.

الوجه الثالث: الأخبار الناهية عن العمل بالكتاب.

ويجيـــب بشـــيء مـــن التفصيل على الوجه الأول، حيث يقول: إنّه ((بمعرض السـقوط صغرى وكبرى، أما الصغرى: فإنّ الواقف على عناية المسلمين على جميع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابةً، يقف على بطلان تلك المزعمة، وأنّه لا ينبغي أن يركن إليه ذو مسكة)). هذا أوّلاً وثانياً: انّ ((ما ورد فيه من الأخبار، بين ضعيف لا يســـتدلّ به، إلى مجعول تلوح منه أمارات الجعل، إلى غريب يُرى منه العجب، إلى

---

١ ـــ الأربعون : ٦٧٠.

٢ ـــ الأربعون : ٦٧٠.

صحيح يدلّ على أن مضمونه تأويل الكتاب وتفسيره. إلى غير ذلك من الأقسام التي يحتاج بيان المراد منها إلى تأليف كتاب حافل. ولولا خوف الخروج عن طور الكتاب لأرخينا عنان البيان إلى بيان تاريخ القرآن، وما جرى عليه طيلة تلك القرون، وأوضحنا لك أنّ الكتاب هو عين ما بين الدفتين. والاختلاف الناشئ بين القرّاء ليس إلا أمراً حديثاً لا علاقة له بما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين))[1].

التفسير بالمصاديق

يرى مفسّرنا الإمام أنّ أكثر الروايات المفسِّرة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، إنّما هي من قبيل بيان المصداق، من حيث الظهور والخفاء، أو من حيث الإشراقية والأفضليّة. ولهذا فإنّ الروايات قد تتنوع وتختلف في آية واحدة، حتّى إنّ غير المطّلع على طبيعتها يحسبها متعارضة ومتناقضة .. والحقيقة هي أنّ الآية المباركة ((في كُلّ مرّة تُفسّر بمصداق جديد بحسب مقتضى المناسبة، فيحسب الجاهل أنّ هناك تعارضاً))[2].

ففي تفسير (الفطرة) في قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها ...)[3]، وردت روايات عديدة:

الرواية الأولى: عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله (فطرت الله ..) قال: فطرهم جميعاً على التوحيد.

الرواية الثانية: صحيحة عبد الله بن سنان، فُسّرت الفطرة على أنّها الإسلام.

الرواية الثالثة: حسنة زرارة، فُسِّرت بالمعرفة.

يقول: إنّ الفطرة ليست مقصورة على التوحيد، بل إنّ جميع المبادئ الحقّة من الأمور التي فطر الله ـــ تعالى ـــ الإنسان عليها. ولهذا يؤكد أنّ الفطرة وإن فسّرت في

---

١ ـــ تهذيب الأصول : ٢ : ١٦٥.

٢ ـــ الأربعون : ٢١٠.

٣ ـــ سورة الروم : ٣٠.

الحديث الشريف بالتوحيد، بيد أن هذا ((من قبيل بيان المصداق، أو التفسير بأشرف أجزاء الشيء، كأكثر التفاسير الواردة عن أهل بيت العصمة ــ عليهم السلام))[1].

وهــذه ملاحظة مهمة وأساسيّة في فهم واستيعاب الكثير من الروايات المفسِّرة للآيات المباركة .. ولا يسع المقام للحديث عن تفاصيلها.

---

١ ــ الأربعون : ٢١٠.

الفصل الخامس

القرآن بين منطقي الثورة والدولة

لقـــد شغلت هموم (الثورة والدولة) مساحة واسعة من تراث الإمام التفسيري، ذلك الهم المغيّب في عالم التفسير، والذي يعتبر من أكبر مقاصد القرآن الكريم وأهدافه الأساسية.

فالقـــرآن بـــنظر مفسرنا كتاب ثورة ودولة، فكما هو ((كتاب المستضعفين في مواجهة المستكبرين)) كذلك هو ((كتاب إقامة حكومة العدل الإلهي)).

ويأســـى على ما آلت إليه الأمور من جهلنا بالإسلام والقرآن، وتأثير الدعايات الاستعمارية حتى على مراكزنا العلمية، مما ((أحوجتنا إلى بذل جهود كبيرة كي نثبت أنَّ في الإسلام مبادئ وقواعد لتشكيل حكومة))[١].

ماهية الأحكام القرآنية : ضرورة الدولة

في كتابه الحكومة الإسلامية يطرح دليلاً لطيفاً ومتيناً على ضرورة تشكيل الدولة الإســـلامية المقتدرة، وهو ما يعبر عنه بـــ ((ماهية)) أو ((طبيعة)) الأحكام والقوانين القرآنية والإسلامية، حيث يرى أنَّ هذه ((الماهية)) (دليل على أنَّ الأحكام والقوانين جاءت لتكوين (دولة)، وذلك من خلال:

أولا: شمولية الأحكام:

لم تقتصر الأحكام في القرآن على الفرد فحسب، بل هي ((قوانين متنوّعة لنظام اجتماعي متكامل تبدأ من علاقات الأسرة والأولاد لتنتهي بتشريعات الحرب والسلم، والعلاقات الدولية، والقوانين الجزائية والحقوقية والتجارية والصناعية .. وهذا هو معنى كون القرآن (تبياناً لكل شيء).

---

١ ــ الحكومة الإسلامية : ١٧.

ثانياً : *التنفيذ يستلزم الدولة*:

((عـــند إمعان النظر في ماهية أحكام الشرع يثبت لدينا أن لا سبيل إلى وضعها موضـــع التنفيذ إلاّ بواسطة حكومة ذات أجهزة مقتدرة)) ويعطي لنا ((أمثلة يسيرة، وعلى الأخوة المؤمنين استقصاء الباقي)):

١ــ الأحكام الماليّة:

(أنّ ما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول)

(خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها)[1].

((الضرائب المالية التي شرّعها الإسلام، ليس فيها ما يدل على أنّها قد خصصت لســـد رمق الفقراء أو السادة منهم خاصة، وإنّما هي تدل على أنّ تشريعها كان من أجل ضمان نفقات دولة كبرى ذات سيادة)).

٢ــ أحكام الجهاد والدفاع:

(وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوّة ..) (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ..)[2].

((ومن جهة أخرى نرى أنّ أحكام الجهاد والدفاع عن حياض المسلمين لضمان استقلال وكرامة الأمة، تدل هي الأخرى على ضرورة تشكيل هذه الحكومة))[3].

ويضـــرب مـــثلاً بقوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهـــبون به عدوّ الله وعدوكم) حيث يقول: ((وإذا كان المسلمون ملتزمين بمدلول هذه الآية، ومستعدين للقتال تحت كل الظروف، لم يكن في ميسور حفنة من اليهود احـــتلال أراضـــينا وتخـــريب مسجدنا الأقصى وإحراقه من غير أن يقابل ذلك بأية مقاومة))[4].

---

١ ــ سورة التوبة : ١٠٣.

٢ ــ سورة البقرة : ١٩٠.

٣ ــ الحكومة الإسلامية : ٣١.

٤ ــ الحكومة الإسلامية : ٣٢.

٣ــ أحكام الحدود والديات والقصاص:

(ولكـــم في القصاص حياة يا أولي الألباب)، (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ...).

((لا يمكـــن لهذه الأحكام أن تقام بدون سلطان حكومة فبواسطتها تؤخذ الدية من الجاني، وتدفع إلى أهلها، وبواسطتها تقام الحدود، ويكون القصاص تحت إشراف ونظر الحاكم الشرعي))[١].

ضرورة تنفيذ أحكام القرآن

هل نزل القرآن لفترة زمنيّة محدودة أم أنه مستمرٌ إلى يوم القيامة؟

وهـــل ينحصر تنفيذ الأحكام والتشريعات القرآنية بزمان الرسول (ص) لتلغيها بعد رحيله؟

يرى مفسّرنا الإمام أنّ هذا التقيد ((يخالف ضروريات العقائد الإسلامية))[٢]، وأنّ الاعـــتقاد بتعطيل الأحكام والقوانين والتشريعات في عصر الغيبة ((أسوأ من الاعتقاد بأن الإسلام منسوخ، فلا يستطيع أحدٌ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول: إنّه لا يجب الدفاع عن ثغور الوطن، أو أنّه يجوز الامتناع عن دفع الزكاة أو الخمس أو غيرها، أو يقـــول بـــتعطيل القانون الجزائي في الإسلام،..))[٣]. ولهذا يرى ((أنّ كل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية فهو ينكر ضرورة تنفيذ أحكام الإســـلام، ويدعو إلى تعطيلها وتجميدها، وهو ــ بالتالي ــ ينكر شمول وخلود الدين الإسلامي الحنيف))[٤].

---

١ ــ الحكومة الإسلامية : ٣٣.

٢ ــ الحكومة الإسلامية : ٢٥ ــ ٢٦.

٣ ــ الحكومة الإسلامية : ٢٥ ــ ٢٦.

٤ ــ الحكومة الإسلامية : ٢٦ ــ ٢٧.

سيرة الرسول تؤكد تشكيل الدولة وضرورة استمرارها

دليـــل آخر على ضرورة تشكيل ودوام الدولة نستفيده من سيرة الرسول الأكرم التي حدّثنا عنها القرآن الكريم والتاريخ، وذلك من خلال أمرين أساسيين:

الأول: تشـــكيله للدولة، وتزعمه لقيادها، بمؤسساها التنفيذية والقضائية، وعقد المعاهدات وقيادة الحروب والغزوات.

الـــثاني: استخلافه ــ بأمر من الله ــ القيادة من بعده ليقوم بمهام الدولة (بلغ ما أُنـــزل إليـــك مـــن ربّك) ((وهذا الاستخلاف يدل بوضوح على ضرورة استمرار الحكومة من بعده))[١].

مواصفات أولياء الأمور

انطلاقاً من قوله تعالى: (لا ينال عهدي الظالمين)، يرى الإمام أنّ ((على الحاكم أنْ يتحـــلى بأقصـــى حدٍّ من كمال العقيدة وحسن الأخلاق مع العدل والنزاهة من الآثـــام؛ لأنّ مـــن يتصـــدى لإقامة الحدود وإنفاذ الحقوق، وينظم موارد بيت المال ومصـــارفه، لا ينـــبغي أن يكون ظالماً، لأن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: (لا ينال عهـــدي الظالمين). فالحاكم إذا لم يكن عادلاً فإنّه لابد من أنْ يخون الأمانة، ويحمل نفسه وذويه وآله على رقاب الناس))[٢].

وبموجب قوله تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ..)[٣]، يرى أن ((الحكومة العادلة من مفردات الأمانة التي يجب تسليمها إلى أهلها، ويجب على أهلها القيـــام عـــليها أحســـن قيام. فهذه الحكومة تعمل بموجب موازين القانون والشرع الشريف))[٤].

---

١ ــ الحكومة الإسلامي : ٢٥.

٢ ــ الحكومة الإسلامية : ٤٧.

٣ ــ سورة النساء : ٥٨.

٤ ــ الحكومة الإسلامية : ٨٢.

((فالحكومة في الإسلام تعني اتباع القانون وتحكيمه. والسلطات الموجودة عند النبي (ص) وولاة الأمر الشرعيين من بعده إنّما هي مستمدة من الله. وقد أمر الله باتباع النبي وأولي الأمر من بعده:

(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).

فلا مجال للآراء والأهواء في حكومة الإسلام، وإنّما النبي والأئمة والناس يتبعون إرادة الله وشريعته))[1].

ولهذا يشجب القرآن الكريم الذين يتحاكمون إلى السلطة الطاغوتية الجائرة، بل ويأمرنا بالكفر بها: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به)[2]؟

((والمقصود من الطاغوت كلّ هيئة وسلطة قضائية أو حكومة تحكم أو تقضي بغير ما أنزل الله، وتعمل في الناس بالجور والإثم والعدوان، وقد أمرنا الله أن نكفر بمثل ذلك، وأن نتمرّد على كلّ حكومة جائرة وإن كان ذلك يكلفنا المشاق))[3].

ويرى مفسّرنا أنّ مقبولة ابن حنظلة التي كانت في مقام تفسير الآية الآنفة تعتبر ((حكماً سياسياً يحمل المسلمين على ترك مراجعة السلطات الجائرة وأجهزتها القضائية، حتى تتعطل دوائرهم إذا هجرها الناس، ويفتح السبيل للأئمة للحكم بين الناس، والغرض الحقيقي من هذه الرواية هو أنْ لا يكون حكّام الجور مرجعاً للناس في أمورهم، لأنّ الله قد نهى عن رجوع الناس إليهم، وأمر بتركهم واعتزالهم والكفر بهم وبحكمهم بسبب ظلمهم وجورهم وانحرافهم عن سواء السبيل))[4].

---

١ ـ الحكومة الإسلامية : ٤٣.

٢ ـ سورة النساء : ٦٣.

٣ ـ الحكومة الإسلامية : ٨٦.

٤ ـ الحكومة الإسلامية : ٨٧ ـ ٨٨.

مسؤولية العلماء في المجتمع

(لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون)[1]، (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)[2] (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم)[3].

يقول مفسّرنا: ((ومن البديهي أنّ هذا اللوم والتوبيخ لا يخص علماء اليهود والنصارى، بل يشمل علماء الإسلام أيضاً إذا سكتوا عما يرون من أعمال الجور والظلم. ومن البديهي ـــ أيضاً ـــ أن هذا اللوم لا يخص جيلاً سابقاً من العلماء، وإنما الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلية، هم في ذلك سواء))[4].

ويؤيد مفسّرنا ذلك برواية عن الإمام علي (ع) جاء فيها: ((اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار إذ يقول: (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون)[5]، وقال: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ـــ إلى قوله ـــ لبئس ما كانوا يفعلون)[6]، وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهوهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم، ورهبة مما يحذرون، والله يقول: (فلا تخشوا الناس واخشونِ)[7]، وقال: (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[8].

---

١ ـــ سورة المائدة : ٦٣.

٢ ـــ سورة المائدة : ٧٩.

٣ ـــ سورة المائدة : ٨٠.

٤ ـــ الحكومة الإسلامية : ١٠٧.

٥ ـــ سورة المائدة : ٦٣.

٦ ـــ سورة المائدة : ٧٨ ـــ ٧٩.

٧ ـــ سورة المائدة : ٤٤.

٨ ـــ التوبة : ٧٢.

فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنها إذا أديت وأقيمت استقامت الفرائض كلها هيّنها وصعبها، وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام مع رد المظالم، ومخالفة الظالم، وقسمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها)).

والرواية طويلة ينقلها مفسّرنا في كتابه (الحكومة الإسلامية)، توبّخ العلماء الذين استخفوا بحق الأمة، وضيعوا حق الضعفاء، حيث يقول في بعض فقراتها: ((وأنتم ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون)) ((ولو صبرتم على الأذى، وتحملتم المؤونة في ذات الله لكانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، ولكنكم مكنتم الظلمة من مترلتكم، وأسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات))[1].

يرى مفسّرنا أنّ استشهاد الإمام علي (ع) بالقرآن ((ليذكر علماء الإسلام ويحملهم على الاعتبار واليقظة وأداء ما يجب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنكار الظلم ومنع إقراره والسكوت عليه. ويشير الإمام في استشهاده بالآية الكريمة إلى نقطتين:

١ ــ أن تقاعس العلماء وسكوقم اشدّ ضرراً من تقاعس سواهم ...

٢ ــ إعطاء أهمية بالغة لقول الإثم واكل السحت، باعتبارهم من المنكرات البشعة...)).

وتمتد آفاق (قول الإثم) لتشمل المصاديق الأكبر خطراً، أمثال: ((ادّعاء خلافة الله بغير حق)) أو ((ادعاء تمثيل الدين في تصرفاته وأفعاله المخالفة لأحكام الدين)) أو ((ادعاء العدالة لنفسه في حين تبرأ العدالة منه))، والخلاصة إن (قول الإثم) يعني ــ أول ما يعني ــ بدع الحكام التي تحاول أن تضفي على سلطتهم الظالمة لباس الشرعية:

---

١ ــ راجع: الحكومة الإسلامية: ١٠٣ ــ ١٠٦.

((إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجالٌ رجالاً على غير دين الله...)).

كما تمتد آفاق (أكل السحت) لتشمل ((اختلاس أموال الشعب كلّها، وابتلاع بيت المال كلّه)) و ((سرقة نفطنا))، وبيعه في ((أسواق الاحتكارات الأجنبية تحت اسم الاستثمارات))[1].

القرآن أم السلطان؟

من هو المسؤول عن تخلف المسلمين وتقهقرهم وتبعيتهم؟

كتب طالب جامعي يدرسُ في أمريكا، رسالة إلى الإمام يقول فيها: إن مما يؤسفني هو أن الطلبة الجامعيين المتواجدين هنا، يقولون: إن كل تعاستنا من الإسلام.

كان جواب الإمام يتلخص في أمرين أساسيين:

أولاً: ((إن الإسلام الذي يعرضونه عليكم عبر الإذاعات والصحف ليس إسلاماً، وإنّ هؤلاء لا يسمحون بعرض الإسلام ونشره. وهذا لا يختص في بلادنا (إيران) فحسب، بل في عموم البلدان الإسلامية.

إن حكومات البلدان الإسلامية الغافلة هي التي أوصلتنا إلى هذا المصير .. وإن شبابنا يتوهمون أن هذا التخلف والبؤس بسبب الإسلام .. كلا يا أخي، إن حكام البلدان الإسلامية الذين يرزحون تحت نير الاستعمار هم الذين أوصلونا إلى هذا المصير، حيث سلّموا ثرواتنا إلى الآخرين، وبقينا جياعاً))[2].

وما انفك الإمام يصرّح بهذه الحقيقة المرّة في العشرات من خطاباته إلى الأمة، ومن مقولاته: ((إن ابتعاد الحكومات الإسلامية عن القرآن هو الذي جعل الأمة المسلمة تواجه هذا الوضع المأساوي))[3].

---

١ ــ الحكومة الإسلامية : ١٠٨ ــ ١٠٩.

٢ ــ الكوثر : ١ : ٢٦٣ ــ ٢٣٨.

٣ ــ صحيفة النور : ١ : ١٨٦. بتاريخ ١٣/٧/١٩٧٢م.

((لـــو أن الـــدول الإسلامية والشعوب المسلمة اعتمدت على الإسلام ورفعت تعالـــيم القرآن الكريم التحررية نصب أعينها، وعملت بها ... لما وقعت اليوم أسيرة للمعتدين الصهانية)) [1].

((إنّ مشكلة المسلمين تكمن في حكوماتهم، فالحكومات ـــ لا الشعوب ـــ هي التي أوصلت المسلمين إلى هذا المصير)) [2].

ثانيـــاً: ((إنّ المســـلمين هم أولئك الذين وسع مجدهم الدنيا بأسرها ذات يوم، وكـــانت حضـــارتهم أرقـــى الحضارات، ومعنوياتهم أعلى المعنويات، ورجالهم أبرز الرجال، ودولتهم أكثر الدول اتساعاً.

لـــذا فقـــد رأى هـــؤلاء (المستعمرون) أنهم لن يتمكنوا من فرض إرادتهم على المسلمين، مع وجود تلك القوة الإسلامية، والوحدة بين المسلمين .. فراحوا يفكرون فيما يمكنهم من ذلك.. فكان قرارهم الأخير السعي لتجزئة البلاد الإسلامية .. وتجزئة الدولة العثمانية ـــ بعد الحرب العالمية الثانية ـــ إلى دويلات صغيرة، ونصبوا على كل دولـــة مـــنها أمـــيراً أو مـــلكاً أو رئيس جمهورية، وهؤلاء (الحكام) كانوا في قبضة الاستعمار، والشعوب المسكينة في قبضتهم.

لقد بلغت الدولة العثمانية مجدها ذاك برفعها لواء الخلافة الإسلامية، وباستنادها إلى القرآن المجيد)) [3].

ولهـــذا يرى الإمام أن سر تخلفنا يكمن في نبذنا للإسلام وراء ظهورنا، وافتراق السلطان عن القرآن.

---

١ ـــ ن . م .

٢ ـــ صحيفة النور : ١٢ : ٢٧٨. من حديث مع الأعضاء المشاركين في مؤتمر تحرير فلسطين، بتاريخ ١٩٨٠/٨/٩م.

٣ ـــ الكوثر : ١ : ٢٣٠ ـــ ٢٣٢.، خطاب رقم ١٥ بتاريخ ٢/ جمادى / الأولى ١٣٨٤هـــ، الموافق ١٩٦٤/٩/٩م.

ولم يكن هذا الافتراق جديداً .. فإن ثورة الإمام الحسين (ع) ضد الطاغية يزيد كـــانت من أجل الرفض الحاسم لهذا الافتراق الصارخ، ولهذا قال قولته: ((أيها الناس إن رســـول الله (ص) قـــال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً عهده، مخالفـــاً لسنة رسول الله (ص) يعمل في عباده بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بعمل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله))[1].

يقول مفسرنا: ((إنّ الموقف الذي أعلنه سيد الشهداء موقف عام، يشمل الجميع (من رأي) أي كل من يرى..))[2].

كلّ ما لدينا من عاشوراء

هـــذه من أشهر مقولات الإمام الخميني، لأنه يرى أنّ الثورة الإسلامية المعاصرة اتخذت من ثورة كربلاء قدوة وأسوة، بل إنّما هي من بركاتها.

لقـــد حدد الإمام الحسين (ع) بجلاء ((علّة ثورته ضدّ حكومة عصره)) ، وذلك في قوله: ((أيها الناس إنّ رسول الله (ص) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكـــثاً عهده، مخالفاً لسنة رسول الله (ص)، يعمل في عباده بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بعمل ولا قول، كان حقاً على الله أنْ يدخله مدخله))[3].

يقـــول: مفسّرنا: ((أي: من يسكت قبال مثل هذا السلطان الجائر يدخل مدخله في الآخرة، وأوصاف هذا السلطان الجائر هي: أنه يغيّر سنة رسول الله، وينكث عهد الله، ويســـتحل حرماته، فمن يره ويسكت عنه يكن في مثل محله في الآخرة حتى ولو كـــان يلتزم أداء جميع الأعمال الواجبة، بل والمستحبة، ويقيم الصلوات في المساجد،

١ ـــ الطبري : تاريخ الأمم والملوك : ٧ : ١٠٠، وراجع : البحار : ٤٤ : ٣٨٢، بنفس المضمون.

٢ ـــ الكوثر : ٣ : ٢٥١ ـــ ٢٥٢، خطاب رقم ٨٣. بتاريخ ٨/ محرم /١٣٩٩هـــ، الموافق ١٢/٢٦/ ١٩٧٨م، في باريس.

٣ ـــ تأريخ الأمم والملوك للطبري : ٧: ٣٠٠. راجع : بحار الأنوار للمجلسي : ٤ : ٣٨٢.

ويبـلّغ أحكـام الله، ويعمل طبق ما يُرضي الله، ويعمل كلّ الصالحات، ويجتنب كلّ السيئات، فمحله محل السلطان الجائر في دركات جهنم))[1].

الثورة ونظرية التكليف

يـرى الإمـام في قضايا النهضة الثورية والقيام، أنّ هناك نوعين من المسؤوليات والأعمال:

النوع الأول: القيام بها بعد التحقق من نجاحها على الأرض.

الـنوع الـثاني: القيام بها من دون النظر إلى تحقق نتائجها .. وهي الأعمال التي يكون ((الأصل فيها هو عنصر التكليف)).

ولهـذا ((يجـب على الإنسان القيام بها كتكليف شرعي لا يجب ولا يشترط أن نحصل على العلم بحتمية تحقق الأهداف التي نرجوها منها، بل يجب أن يكون اهتمام المرء بها كتكاليف كلّف بها وعليه أنْ يعمل بها)).

ويضـرب لذلـك أمثلة تأريخية، كموقف الإمام علي (ع) من معاوية، وموقف الإمام الحسين (ع) من يزيد. لقد ((ثار ضد يزيد ولعله كان مطمئناً بأنه لن ينجح في إسقاطه من السلطة، بل هذا هو الواقع فعلاً، حيث تذكر الأخبار أنه كان عالماً بعدم نجاحـه في ذلك، لكنه رغم ذلك ــ وعملاً بواجب الثورة ضد النظام الظالم حتى لو كان مصيره القتل ــ ثار ضد يزيد وقدم الضحايا وقاتل وقتل منهم حتى استشهد)).

إن الصـراع مع الشاه ــ كما يرى الإمام ــ لا يختلف عن الصراع مع معاوية ويـزيد، لأن الجميـع كانوا غاصبين لأمانة الحكم، يحكمون بخلاف موازين الإسلام والقرآن، ومثل هذا الحاكم ((يبقى غاصباً للحكم مهما ذهب لزيارة المراقد المقدسة، ومهما اعتذر، ومهما طبع القرآن، وقام بأمثال هذه الحيل))[2].

---

١ ــ الكوثر : ٣ : ٢٥١ ــ ٢٥٢. خطاب بتاريخ ٨/ محرم / ١٣٩٩هـ، الموافق ١٢/٩/١٩٧٨م.

٢ ــ الكوثر : ٣ : ١٠٤، الخطاب ٧١ بتاريخ ١٧/ ذي الحجة / ١٣٩٨هـ، الموافق ١١/١٨/ ١٩٧٨م.

((حتى لو كان عدونا قليلاً يجب أن نستنكر هذا الوضع))[1].

منطق القرآن: النهضة والقيام

(قل إنما أعظكم بواحدة أنْ تقوموا لله مثنى وفرادى)[2].

لعل هذه الآية المباركة هي الأوسع مساحة في تراث الإمام التفسيري، ولا سيّما في خطاباته الجماهيرية، حيث سلّط عليها الأضواء في أكثر من ثمانية عشر خطاباً[3].

يقول الإمام: ((الواعظ هنا هو الله تبارك وتعالى، وناقل الموعظة هو النبي الأكرم (ص)، وهــو يقول في الآية: (إنّما أعظكم بواحدة) أي ينبغي أنْ تكون هذه الموعظة عــلى درجــة كبيرة من الأهمية لكي يتحدث عنها بهذا التعبير، وهي ((أن تقوموا لله مثنى وفرادى)) أي أن تقوموا لله؛ في سبيل إقامة الحق، ولا يشترط أن تتشكل مجاميع أولاً ثم يقوم بعدها الإنسان بذلك، بل إن هذا التكليف يشمل حالات الفرادى مثلما يشـــمل حالات المثنى، فالتكليف بالقيام لله قائم عندما يكون الإنسان وحيداً وكذلك في حالة تشكيل التجمعات، وأقلها المشكلة بين اثنين، وهذه البداية ثم يرتفع العدد إلى أي حد كان)).

((إذن المعيــار هــو أن يشخص الإنسان كون القيام لله، فإذا أصبح قياماً لله فلا خــوف بســبب كوننا وحدنا أو أنّ عدونا قليل، فلا خسران ولا ضرر في القيام إذا كان لله)).

((إن معظم الرجال التأريخيين قام كلٌ منهم وحيداً في مجابهة القوى المضادة. النبي إبراهــيم انــتفض وحيداً وحطم الأصنام، حتى إنهم عندما أتوا ذكروا أن الذي يفعل ذلــك شــخص واحــد (يقال له إبراهيم)، لقد قام وحيداً في مواجهة عبدة الأوثان

---

١ ــ الكوثر : ٣ : ٢٣٩، الخطاب ٨٢ بتاريخ ١/ محرم / ١٣٩٩هــ.

٢ ــ سورة سبأ : ٤٦.

٣ ــ صحيفة النور : ١: ٣، ٣ : ٢٠٢، و٢٠٣ و٢٤٣؛ ٤ : ٩٤ و ٢٥٢ و٢٥٣؛ ٥ : ٦١ و ١٩، ٦ : ١٤١ و ١٤٢ و ١٩٨، ٧ : ٣٦ و ٣٧ و ١٤٥، ٩ : ٢٧٧ و ٢٧٨، ١٠ : ٢٢١ و ٢٢٢، ١٣ : ٣٢، ١٦ : ٢٠١، ١٨ : ١٠٩، ١٩ : ١٨ و ١٩، ٢٠ : ١٢٧، ٢٢ : ٣٥.

وشـــيطان زمانه، و لم يخش الوحدة، لأن هذه الانتفاضة كانت قياماً لله، ولأنه قيام لله فكـــلا وجهيـــه نفـــع، فهو رابح سواء غلب أم لم يغلب، لأنه أمام هاتين الحسنيين، الدنيويـــة ـــ إذا حصل عليها ـــ والأخروية مضمونة بلا إشكال)): (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين)؟

ويضـــرب كذلك مثلاً بموسى (ع): ((النبي موسى كان راعياً لدى النبي شعيب (ع) لسنين عديدة، ثم أتاه الأمر بأن يهبّ لتنفيذ ذلك ((القيام))، وغاية الأمر أنه (ع) طـــلب من الله شيئاً، وهو أن يكون معه أخوه أيضاً، وعندها أصبحا (مثنى)، فقد قام وحـــده أولاً، ثمّ انضـــم إليه أخوه فأصبحا اثنين، ولكن في مواجهة أي سلطة؟! إنها ســـلطة الفراعـــنة الذيـــن لا زالت أثارهم العجيبة الغريبة باقية في القاهرة في مصر)) ((والـــنبي الأكرم (ص) كان وحيداً في بداية قيامه، قام وحيداً بدعوة الناس .. فالذي آمـــن بـــه كانت زوجته السيدة خديجة، وكانت في المترل والإمام علي وكان حينها صبياً، ثم ازداد العدد فيما بعد))[1].

ثم يخـــاطب الشعب الإيراني أبان ثورته من منفاه الأخير نوفل لي شاتو في باريس قـــائلاً: ((إنكـــم استجبتم للموعظة الإلهية الواحدة: (إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا) وقمتم لله فلا مجال حينئذ للخوف من البشر، فما هو وزن البشر وكل البشر في مقابل قوّة الله تعالى؟!

لو ضاعت منظومتكم الشمسية كلها في كل هذه المنظومات الشمسية للزم الأمر أنْ يأتي جبرائيل للعثور عليها بسبب مدى اتساعها، وما اكتشفوه منها لحد الآن يحير حقـــاً عقولنا الصغيرة، ويصل نور بعض النجوم ـــ التي اكتشفوها ـــ إلينا بعد مسيرة (٦) بليون سنة ضوئية رغم سرعة الضوء الهائلة .. فلا وزن للبشر وغيرهم في مقابلها ليستطيعوا فعل شيء)) .

---

١ ـــ الكوثر : ٣ : ١٢٥ ـــ ١٢٧، خطاب بتاريخ ١٨/ ذي الحجة : ١٣٩٨هـــ، الموافق ١١/١٩/ ١٩٧٨م، في باريس.

((لا يستطيع (كارتر) إسكات شعب قام في سبيل الله والحق))[1].

يرى مفسّرنا أن ((مطالعة ولو سطحية في القرآن، ترشدنا إلى أهداف الأنبياء .. ولمـــاذا بعثهم الله إلى الناس جميعاً .. وهل جاء القرآن للذكر والدعاء وكتابة الحروز (التمائم)؟

مـــن يطـــالع القرآن يجد آيات الحرب والقتال .. ليس آية أو آيتين .. بل آيات عديدة تبحث في الحرب .. ولقد كان تأريخ الإسلام في عهد النبي (ص) تأريخ حرب مـــع الأقوياء والقرآن كتاب (حركي) أكثر منه في شيء آخر، كتاب يدعو الشعوب إلى النهوض والقيام، إلى كسر الجمود والخنوع، إلى الصراع مع الطواغيت))[2].

وقـــد سعى مفسرنا جاهداً للوقوف بوجه الاتهامات الظالمة التي أرادت ان تبعد القـــرآن عن أهدافه ومقاصده في الثورة والقيام والنهوض، حيث يقول: ((إن العارف المنطق القرآني ـــ ولو بمقدار ـــ يدرك أن القرآن هو الذي يجعل بني الإسلام في حالة حـــرب مســـتمرة مع الرأسماليين والمتجبرين الأقوياء الذين كانوا أصحاب القدرة في الحجاز والطائف ومكة وغيرها)).

ويؤكد على سعة دائرة موضوع الحرب والجهاد والقتال في القرآن الكريم، حيث يقول: ((تلك الآيات الواردة في باب الحرب وقتال المشركين ـــ وهم أصحاب النفوذ يومـــئذ ـــ ليســـت آية واحدة ولا آيتين، بل هي آيات كثيرة، في حين لو وجدتم في القرآن الكريم كله آية واحدة تدعو الناس إلى الخضوع وملازمة بيوتهم ليفعل الجبابرة ما يشاءون، حينئذ يحق للمرء أن يقول: إنّ القرآن والإسلام هما أفيون)).

كما يؤكد الإمام على حقيقة مهمة وهي: ((لقد توصلت دراسات الغرب إلى أنّ العقـــبة القائمة بوجه مطامع الغرب هو القرآن والذين درسوا القرآن وعرفوا مكمن

---

١ ـــ الكوثر : ٣ : ١٣٢، الخطاب رقم ٧٣.

٢ ـــ الكوثر : ٢ : ٦٣، خطاب رقم ٣٤ بتاريخ ١٢/ ذو القعدة /١٣٩٨هـــ، الموافق ١٥/١٠/١٩٧٨م.

احـــتمالات الـــتحرك لتطويق مطامع الغرب، لذا يجب تحطيم هاتين العقبتين (القرآن وحملة القرآن) لفتح الطريق أمام تحقيق مطامعهم))[١].

وهذا هو السّر في كل تلك الهجمة الشرسة التي تواجهها الدولة الإسلامية اليوم، والتي كانت تواجهها بالأمس عندما كانت ثورة.

إن أعداءنا يخافون أن نفهم القرآن بأنّه منطق ثورة ومنطق دولة معاً.

---

١ ـــ الكوثر : ٢ : ٢٩٠، خطاب رقم ٥١ بتاريخ ٢٧/ ذي القعدة /١٣٩٨هـــ، الموافق ٣٠/ تشرين الأول /١٩٧٨م.

الفصل السادس

آيات الحج ومناسكه بين التفسير الدلالي والتفسير التطبيقي

أهم ما يمتاز به تفسير الإمام الخميني للقرآن الكريم أمران أساسيان:

الأول: الأبعـــاد المتعددة، والاتجاهات المتنوعة، التي تنطلق مع الآيات القرآنية في آفاقها الرحبة، وأبعادها الواسعة التي تتجاوز الفرد إلى المجتمع والأمة والدولة.

الثاني: التطبيق والتجسيد، وهو عملية تلمس المصاديق الحية المعاصرة، والنماذج الفاعلة الحاضرة لما تطرحه الآيات القرآنية.. وهو ما يعرف بـــ (التفسير التطبيقي).

ويعطـــي الأمـــر للتفسير طابع الشمولية والامتداد لكل ساحات الحياة، ومواقع الـــتدافع: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثورية.. فيما يعطي الأمر الثاني طابع الواقعية والعصرية .. بعيداً عن التجريدية والماضوية.

مـــن هـــذا المنطـــلق يأسف الإمام الخميني على تلك النظرات التفسيرية الضيقة للآيـــات المـــباركة التي تجعلها محصورة في زاوية معتمة، وبعد ضيق، وافق قريب لا يـــتجاوز دائرة المحلة التي يصلون في مسجدها، أو على حد تعبير الإمام ((لا يتجاوز محور تفكيره محيط المسجد)).

فـــإذا أرادوا أن يطـــبقوا ـــ مـــثلاً ـــ آية أكل السحت في سورة المائدة: (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون)[1]، ((لايخطـــر ببالهم سوى البقال القريب من المسجد الذي يطفف في البيع مثلاً ... فلا يلتفـــتون إلى التطبيقات الواسعة والكبيرة لأكل السحت والنهب، التي تتمثل ببعض الرأسماليين الكبار أو من يختلسون بيت المال، وينهبون نفطنا، ويحولون بلادنا إلى سوق لـــبيع المنـــتوجات الأجنبية غير الضرورية، والغالية الثمن؛ لكونهم يمتلكون وكالات الشـــركات الأجنبية، ويملأون جيوبهم وجيوب المتمولين الأجانب من أموال الشعب عبر هذا السبيل)).

يؤكـــد الإمـــام عـــلى هذا النمط المغفول عنه من السحت، بقوله: ((هذا أكل للسحت على مستوى واسع ودولي)).

١- المائدة: ٦٣.

كمـــا يدعـــو الناس ــ وهم يقرأون آية أكل السحت ــ إلى تطبيق الآيات في واقعـــنا المعاصــــر لتشمل المصاديق الكبيرة، قائلاً: ((ادرسوا أوضاع المجتمع وأعمال الدولة والجهاز الحاكم بشكل دقيق؛ لتروا أن (أكل السحت) مرعب يجري عندنا[1])).

وإذا أرادوا أن يفسروا آيات (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ويطبقوها على المجتمع، فإنهم لايرون المنكر إلا في ((نطاق دائرة صغيرة))، كـــ ((سماع الموسيقى في الباصـــات، أو ارتكاب بعض المخالفات في المقاهي، أو تجاهر بعض الناس بالإفطار)) في الساحات، من دون أن يلتفتوا إلى ((تلك المنكرات الكبيرة))، وإلى ((أولئك الذين يقومون بضرب الإسلام معنوياً، وسحق حقوق الضعفاء))[2].

و لم تشـــذ آيـــات الحـــج عن تلك النظرة الضيقة لبعض الناس، مما أدى بنا إلى حصرها في آفاق ضيقة سواء على صعيد التفسير الدلالي أو التطبيقي.

كما لم تشذ تلكم الآيات عن ذلك المنهج التفسيري القيم للإمام الخميني، بل إنها تشكل مصاديق بارزة، ونماذج حية، تؤكد على طابعي الشمولية والمعاصرة في منهجه التفسيري.

ينطـــلق الإمام في تفسيره لآيات الحج ومناسكه في آفاق رحبة بعيدة؛ ليكتشف أبعادها السياسية والاجتماعية والثورية، إضافة إلى أبعادها الروحية العرفانية.

المبحث الأول: آية شهود المنافع

(وأذن في الـــناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق • ليشهدوا منافع لهم...)[3].

لماذا هذا الإعلام الإبراهيمي برفع الصوت بالحج عالياً، والنداء؟

١- الحكومة الإسلامية: ١٦٦ ــ ١٦٧.

٢- الحكومة الإسلامية: ١٧١.

٣- الحج: ٢٧ ــ ٢٨.

لمـــاذا كل هذا الحرص على حضور الناس وحشدهم في زمان واحد وفي مكان واحد وفي مناسك موحدة؟

لماذا كل هذا الحشر في ذلك المكان المقدس الطاهر؟

مـــا هـــو سر هذا الحشد المليوني الهائل لهؤلاء المسلمين الآتين من شرق الأرض وغربها؟

مـــا هـــي المقاصـــد والأهداف والغايات التي تجعل هؤلاء الملايين من المسلمين يهجـــرون أوطانهم وأهليهم، ويعطلون أعمالهم ومشاريعهم، ليلتحقوا بركب الحجيج المقبلين من أقطار بعيدة، وأصقاع نائية؟

إن الآيـــة الثانية تعطي لنا الجواب الشافي عن هذه الأسئلة المتعددة مبنى، المتحدة مضـــموناً ومعنى، حيث ترسم لنا فلسفة الحج، وعلته أو غايته ــ على اختلاف اتجاه التفسير في حرف (اللام) ــ بقوله: ليشهدوا ــ ذلك التجمع المليوني للمسلمين الآتين من كل فج عميق، راجلين وراكبين: (ليشهدوا منافع لهم).

(التجارات) هي المنافع الدنيوية: بين الأمس واليوم.

يتســـاءل الإمام الخميني: ما هي هذه (المنافع) التي تمثل العلة أو الغاية من حضور هذا الحشد المليوني الهائل؟

ماذا يتصور المسلم القارئ للقرآن الكريم من دلالات وأبعاد وآفاق لهذه (المنافع) التي أراد الله تعالى أن يشهدها الملايين الوافدون من أصقاع الكرة الأرضية؟

هل نكتفي بتفسير (المنافع) بكونها منافع اخروية في الجنة فيما يعطيه الله للحجاج مـــن الثواب الجزيل كما ذهب بعض المفسرين؟ أو نفسرها بـــ (التجارات في الدنيا كمـــا ذهـــب بعض آخر، أم نجمع بين التفسيرين (التجارات في الدنيا، والمغفرة في الآخرة)؟! وكأن (التجارات) هي المنافع الدنيوية الوحيدة التي من أجلها فرض الله عز وجل فريضة الحج، وأوجب على المسلمين أن يحققوا ذلك الاجتماع المليوني الكبير.

وإذا كـــان السابقون يدركون المقاصد التجارية للحج باعتباره يمثل ــ فيما يمثل ــ ســـوقاً إسلامية عالمية رائجة، فنحن ــ في واقعنا المعاصر ــ لايمكن أن نعتبر هذه السوق من (المنافع) التي ذكرتها الآية المباركة، وجعلتها علة أو غاية للحكم...

ذلك لأن السوق في مكة والمدينة أصبحت (أمريكية ــ أوروبية ــ يابانية) بكل معنى الكلمة.

وقد نبه الإمام الخميني إلى هذه الظاهرة الخطيرة وحذر الحجاج المسلمين، الذين تـــركوا الأهل والديار، وأتوا ملبين دعوة إبراهيم الخليل(عليه السلام)، من أن يكونوا ((مســـتهلكاً)) ممتازاً للبضائع الأمريكية، بقوله: ((أسواق البلدان الإسلامية أصبحت مركـــز تـــنافس بضائع الغرب والشرق، حيث تتجه إليها سيول البضائع الأمريكية والأوروبية واليابانية الكمالية واللعب والاستهلاكيات. ومع الأسف الشديد فان مكة المعظمـــة وجـــدة والمشاهد المشرفة في الحجاز.. حيث مركز الوحي ومهبط جبرائيل وملائكـــة الله، ومحل تحطيم الأصنام والبراءة منها، أصبحت مملوءة ببضائع الأجانب، وغدت سوقاً رائجاً لأعداء الإسلام وأعداء الرسول الأعظم(ص))[1].

وقـــد حـــذر الإمام بصورة متكررة من هذه الظاهرة السيئة الخطيرة التي تحول (المنافع) التجارية ــ التي ذكرها المفسرون المتقدمون ــ إلى مضار كبيرة، بحيث نرى أن الحجيـــج يستغرقون الليالي والأيام في أسواق مكة والمدينة ليشتروا تلك البضائع. يقـــول الإمـــام: ((كثير من حجاج بيت الله الحرام الذين يذهبون لأداء فريضة الحج، ومـــن المفـــروض بهـــم أن يلبوا استغاثة المسلمين لما يحيط بهم من مؤامرات، نراهم يتجولون غافلين في الأسواق بحثاً عن البضائع الأمريكية والأوروبية واليابانية، وبذلك يؤلمون قلب صاحب الشريعة بعملهم هذا المسيء إلى كرامة الحج والحجاج معاً))[2].

١- خطاب الإمام: ٢٨/ذي القعدة/ ١٤٠٥هـ.

٢- المصدر السابق.

وفي خطابه للعام التالي (١٤٠٦هـ) ركز الإمام في تحذيره على البضائع الأمريكية خاصة، وذلك في النقطة الثالثة من توصياته السنوية إلى الحجاج الايرانيين، معتبراً عرضها مخالفاً لمقاصد الحج وأهدافه، كما أن شراءها يعد دعماً ومساندةً لأعداء الاسلام، بقوله: ((بالنسبة للبضائع المعروضة في الحجاز للحجاج المحترمين ما كان يرتبط منها بأمريكا، فان عرضها مخالف للأهداف الإسلامية، بل مخالف للإسلام تماماً، وشراءها دعم لأعداء الإسلام، وترويج للباطل، فيجب الاجتناب عن ذلك)).

واعتبر الإمام ــ إبان الحرب المفروضة ــ أنه ((ليس من الإنصاف أن يقدم شبابنا أرواحهم في الجبهات ويضحوا، بينما أنتم تساعدون مجرمي الحرب بشرائكم هذه البضائع.. فإن في ذلك إساءة إلى الإسلام والجمهورية الإسلامية وشعبكم المظلوم)).

وقد أشار إلى أن هذه المسألة قد ذكرها في السنوات السابقة، بيد أنها تستحق التكرار والتأكيد لأهميتها، حيث يقول: ((لقد ذكرت بهذا في السنوات الماضية لأهمية الموضوع وحساسيته، ومن واجبي أن اكرر ذلك))[١].

(المنافع) بنظر المفسرين المعاصرين

ركز بعض المفسرين المعاصرين على التعليل أو الغاية: (ليشهدوا منافع لهم)، ورسموا الأبعاد المتنوعة والمتعددة لهذه المنافع، التي أراد الله تعالى أن يشهدها موسم الحج في مكة المكرمة.

العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان) نبه إلى إطلاق تعبير (منافع)، وعدم تقييده بالدنيوية أو الأخروية، مما يعني شمولهما معاً، وقد عرف المنافع الدنيوية بأنها تلك ((التي تتقدم بها حياة الإنسان الاجتماعية، ويصفو بها العيش، وترفع بها الحوائج المتنوعة، وتكمل بها النواقص المختلفة من أنواع التجارة والسياسة والولاية والتدبير وأقسام

١- خطاب الإمام؛ ١/ ذي الحجة/ ١٤٠٦هـ.

الرســـوم والآداب والســـنن والعادات، ومختلف التعاندات والتعاضدات الاجتماعية وغيرها)).

ثم أعطى العلامة مصاديق هذه المنافع الدنيوية مشيراً إلى الأمور التالية:

أولاً: التعارف بين المسلمين القادمين من أصقاع الأرض المختلفة.

ثانياً: اتحاد المسلمين على كلمة واحدة هي كلمة الحق.

ثالثا: التعاون فيما بينهم في سبيل حل مشاكلهم.

رابعـــاً: امـــتزاج المجتمعات الإسلامية لتكون ((مجتمعاً وسيعاً له من القوة والعـــدة مـــا لا تقوم له الجبال الرواسي، ولا تقوى عليه أي قوة جبارة طاحنة، ولا وســـيلة إلى حـــل مشكلات الحياة كالتعاضد، ولا سبيل إلى التعاضد كالتفاهم، ولا تفاهم كتفاهم الدين))[1].

ومن المفسرين المعاصرين الذين أعطوا لآية المنافع دلالاتها وأبعادها، الشهيد سيد قطـــب، حيث يقول: ((والمنافع التي يشهدها الحج كثيرة، فالحج موسم ومؤتمر. الحج موســـم تجارة وموسم عبادة. والحج مؤتمر اجتماع وتعارف، ومؤتمر تنسيق وتعاون، وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة، كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة)).

ثم يعدد هذه المنافع الكثيرة، ويرسم بريشته الفنية الأرواح وهي ترف حول بيت الله وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف.

(طيـــف إبراهيم الخليل(ع) وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه، ويتوجه بقلـــبه الخافق الواجف إلى ربه: (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم...).

(وطيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملتهبة حـــول الـــبيت، وهـــي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدها الجهد

١- الميزان ١٤: ٣٦٩ ــ ٣٧٠.

وأضـــناها الاشفاق على الطفل.. ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء. وإذا هي زمزم ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب).

وطيف إبراهيم(ع) وهو يرى الرؤيا، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده...

وطيف إبراهيم وإسماعيل(ع) يرفعان القواعد من البيت، في إنابة وخشوع..))[1].

ويســـتمر سيد قطب في رسم تلك الأطياف.. إلى أن يقول: ((والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة. مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الــزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل: (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هــذا) .. ويجــدون محورهم الذي يشدهم جميعاً إليه: هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعـــاً، ويلــتقون عـــليها جميعاً.. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً. قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين. الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحـــدة الـــتي لا تتعدد.. راية العقيدة والتوحيد)). ((وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنســـيق الخطط وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب، وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام...)).

ويـــرى صاحب (في ظلال القرآن) أن كل ذلك يمثل ((بعض ما أراده الله بالحج يـــوم فرضه على المسلمين، وأمر إبراهيم(ع) أن يؤذن به في الناس)) ((ليشهدوا منافع لهـــم)).. فـــإن كـــل جيـــل يشهد تلك المنافع ((بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته))[2].

المنافع بنظر الإمام الخميني

ركـــز الإمـــام عـــلى آية (شهود المنافع) كثيراً، وذكرها في العديد من خطاباته السنوية التاريخية في موسم الحج، وأعطى دلالاتها وتطبيقاتها معاً.

١- في ظلال القرآن ٤: ٢٤١٩.

٢- ن. م: ٢٤٢.

وقـــد أكد على شمولية هذه المنافع، لتشمل كل نفع للمسلمين والامة الإسلامية عـــلى جميع الأصعدة الروحية والسياسية والثورية والاجتماعية والاقتصادية، وقد دعا ـــ بقـــوة ـــ الحجيج جميعاً إلى تحقيق تلكم المنافع المتنوعة في ذلك ((المؤتمر الإسلامي الكبير، في الأيام المباركة والأرض المباركة))، قائلاً: ((على المسلمين الملبين لدعوة الله تعالى أن يستفيدوا من المحتوى السياسي والاجتماعي، إضافة إلى المحتوى العبادي، وأن لا يكتفوا بالشكل والصورة فحسب))[1].

وقـــد أطلق الإمام في خطاباته زفرات الأسف واللوعة على ما آل إليه المسلمون في الغفلة عن تلكم (المنافع) العظيمة، التي توخاها القرآن، من تشريعه لفريضة الحج.. إلى درجـــة بـــدا فيها (الحج الإبراهيمي ـــ المحمدي) غريباً ومهجوراً، حيث يصرح قـــائلاً: ((إن الحج (الإبراهيمي ـــ المحمدي) غريب ومهجور منذ سنين على الصعيد المعـــنوي والعـــرفاني، كما هو غريب ومهجور على الصعيد السياسي والاجتماعي، وعـــلى الحجاج الأعزاء من جميع أقطار العالم الإسلامي أن يزيلوا عن بيت الله غربته على الأبعاد والأصعدة كافة))[2].

ولهـــذا حـــذر من أن يكون هذا الاجتماع المليوني للمسلمين الآتين من كل فج عميق، مصداقاً للرواية القائلة: ((ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج))[3].

وهناك مقولة رائعة للإمام تعبر عن مدى المنافع والعطاءات لفريضة الحج، وعلى جميـــع الأصعدة، وهي: ((الحج كالقرآن مائدة ينتفع منها الجميع))[4]، ولذا فإنه يرى الاستفادة من جواهر بحره تختلف بحسب اختلاف مستويات الناس الفكرية والثقافية، وحملهم لهموم الأمة الإسلامية، وشعورهم بآلامها وآمالها.

١- خطاب الإمام: ٧/ ذي القعدة / ١٣٩٩هـــ .

٢- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة / ١٤٠٦هـــ.

٣- خطاب الإمام: ١/ ذي القعدة / ١٤٠٣هـــ.

٤- خطاب الإمام: ٤/ ذي القعدة / ١٤٠٨هـــ.

كمـــا يـــرى أن الحج يشبه القرآن، في غربته ومهجوريته، حيث يقول: ((الحج مهجور كالقرآن))[1].

من هنا ندرك أن الإمام يرى أن الحج كالقرآن في أعماقه، وكالقرآن في غربته.

مـــن هذا المنطلق يوجب مفسرنا الإمام على جميع المسلمين ((أن يسعوا من أجل إعـــادة الحيـــاة إلى الحج والقرآن معاً))، كما يدعو علماء الإسلام الملتزمين إلى ((أن يضـــطلعوا بمسؤولية تقديم وإعطاء التفاسير السليمة والواقعية لفلسفة الحج ومناسكه، بعيداً عما تنسجه خيالات وتصورات (علماء البلاط) من خرافات)).

(المنافع): البعد السياسي ـ الاجتماعي

لقـــد ركز الإمام على البعد (السياسي ـــ الاجتماعي) في قوله تعالى: (ليشهدوا مـــنافع لهم) أكثر مما ركز على البعد(النفسي-العرفاني)رغم تصريحه بأن البعد (الثاني هـــو الأســـاس، وهـــو المنطلق لكل الأبعاد الأخرى، حيث صرح قائلاً: ((إن البعد (السياسي ـــ الاجتماعي) لا يتحقق إلا بتحقق بعده المعنوي الإلهي))[2].

وقـــد كان يؤكد في كتبه أنه: مالم تتكسر أصنام كعبة القلب، لا يمكن للإنسان أن يكســـر الأصـــنام الأخـــرى الحجـــرية والبشرية المتمثلة بالطاغوت السياسي ـــ الاجـــتماعي[3]، ذلك لأن الإنانية هي ام الأوثان وأعدى أعداء الإنسان[4]، وأن ((كل جهود الأنبياء من آدم حتى الخاتم استهدفت كسر صنم الذاتية الذي هو أكبر الأصنام، ثم كسر بقية الأصنام))[5].

١- ن. م.

٢- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة / ١٤٠٤هـــ.

٣- راجع الآداب المعنوية: ٤٢٢.

٤- ن . م: ٢٤.

٥- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة / ١٤٠٤هـــ.

ولهذا يرى أن الطواف حول الكعبة ((يرمز إلى عدم الالتفاف حول غير الله))[1] ، كمـــا هـــو ((رمز إلى عشق الله وتتريه للنفس من أن تخاف غيره تعالى))[2] ، كما أن السعي بين الصفا والمروة يمثل ((السعي لإيجاد المحبوب))[3].

بيـــد أن سر تركيز الإمام على البعد (السياسي ــ الاجتماعي) في فريضة الحج يكمـــن في إيمانه بأن أعداء الإسلام ما تآمروا على بعد من أبعاد الحج أكثر مما تآمروا عـــلى هذا البعد السياسي الاجتماعي، من أجل أن يفرغوا فريضة الحج منه، حتى غدا الحـــج أبعد ما يكون عن السياسة والاجتماع يقول الإمام: ((إن من أكثر أبعاد الحج تعرضاً للغفلة والهجران هو البعد السياسي لهذه المناسك العظيمة. ولقد عملت الأيدي الآثمـــة أكثر ما عملت ــ ولا زالت ــ على هجرانه)). ولهذا فإن ((المسلمين اليوم، وفي هـــذا العصـــر ــ عصر الغاب ــ مسؤولون أكثر من أي وقت مضى عن إبرازه وإزالة الحجب عنه)).

تغييب البعد السياسي: مؤامرة كبرى

يـــرى الإمام (قدس) أن تغييب البعد السياسي الاجتماعي الثوري لفريضة الحج ومناسكه إنما هو مؤامرة كبرى تولى كبرها عناصر ثلاثة:

العنصر الأول: الاستكبار العالمي (المتلاعبون الدوليون).

العنصر الثاني: الحكام العملاء التابعون.

العنصر الثالث: العلماء (المزيفون و المتحجرون).

ولا يخفى أن العنصر الثالث يتضمن طائفتين:

أ ــ المزيفون المأجورون (وعاظ السلاطين)، أو (علماء البلاط).

ب ــ المتنسكون المتحجرون (المتزمتون).

١- خطاب الإمام: ٧/ ذي الحجة / ١٣٩٩هـــ.

٢- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة / ١٤٠٦هـــ.

٣- ن . م.

ولا يكـــاد يخلو خطاب سنوي تاريخي من خطابات الإمام في موسم الحج، من تســـليط الأضواء على هذه المؤامرة الكبرى بأطرافها الثلاثة، التي نجحت إلى حد كبير في إفراغ الحج من محتواه السياسي، ومضمونه الاجتماعي الثوري.

ففـــي عـــام ١٤٠٤هـــ كشف الغطاء بصراحة عن مثلث التآمر، قائلاً: ((لقد عملت الأيدي الآثمة أكثر ما عملت ــ وما زالت ــ على تغييبه وهجرانه، يساندهم في ذلــك ــ عن علم أو غير علم ــ عملاؤهم الطامعون والغافلون الجهلة، وعلماء الدين المأجورون أو المنحرفون، والمتنسكون المتزمتون المتحجرون))[1].

وهذا النص يشير بصراحة إلى مثلث التآمر برؤوسه الثلاثة.

وفي بدايـــة ذات الخطاب أكد على العنصرين الأول والثاني باعتبارهما الأخطر؛ لأن العدو الداخلي أخطر بكثير من العدو الخارجي، حيث يقول: ((ومن المؤسف أن الأبعاد المختلفة والمتنوعة لهذه الفريضة المصيرية العظيمة، بقيت مغيبة من وراء حجب، بســـبب انحـــرافات حكومـــات الجور في البلدان الإسلامية (العنصر الثاني)، ووعاظ السـلاطين الســافلين (العنصر الثالث ــ أ)، وسوء فهم بعض علماء الدين المتزمتين المتحجرين في العالم الإسلامي (العنصر الثالث ــ ب)))[2].

ومـــن دون شـــك فإن العنصر الأخطر في هذه المؤامرة هو العنصر الثالث بكلا قسميه، وقد عانى الإمام منهم ــ كما صرح بذلك ــ أكثر مما عانى من أمريكا.

يقـــول الإمـــام: ((وقد بلغ الأمر بهؤلاء المنحرفين إلى أن وقفوا معارضين لإقامة الحكومـــة الإسلامية، واعتبروها أسوأ من حكومة الطاغوت، وحصروا فريضة الحج الكـــبرى بظواهر فارغة، واعتبروا طرح مشاكل المسلمين والبلدان الإسلامية (في هذا المؤتمر الإسلامي المليوني) مخالفة للشريعة، بل يصل إلى حد الكفر.

١- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة / ١٤٠٤هـــ.

٢- ن . م.

هــؤلاء العملاء المرتبطون بالحكومات الجائرة المنحرفة صوروا صرخة المظلومين المجتمعين من أرجاء العالم، وفي مركز النداء هذا، بأنها زندقة مخالفة للإسلام.

هــؤلاء المهــرجون ــ من أجل إبقاء المسلمين على تخلفهم، وفتح الطريق أمام الغزاة والسلطويين ... حصروا الإسلام في زوايا المساجد والمعابد، واعتبروا الاهتمام بأمور المسلمين مخالفاً للإسلام ولواجبات المسلمين وعلماء الإسلام))[1].

منطق وعاظ السلاطين

((إن الحــج ــ منذ انبثاقه ــ لايقل بعده السياسي أهمية عن بعده العبادي، بل إن الــبعد السياسي هو بذاته عبادة))[2] ، وإن ((البعد السياسي)) يمثل ((إحدى حكم الحج الكبرى))[3] ، وإن ((الحج إنما هو لهذه المسائل (السياسية ــ الاجتماعية ..) إنما هو لقيام الناس (قياماً للناس)[4] ، لكي يدرك المسلمون مشاكلهم ويسعوا في حلها))[5].

ولهــذا فإنــه خاطب عام ١٤٠٣هــ، أحد وعاظ السلاطين الذي أفتى بمخالفة الهتاف ضد أمريكا وإسرائيل لمراسم الحج وقدسية بيت الله الحرام، قائلاً له:

((هل التأسي برسول الله واتباع أمر الله مخالف لمراسم الحج؟

هل تنزهون مراسم الحج من البراءة من المشركين؟

أتكتمون أوامر الله ورسوله من أجل متاع الحياة الدنيا، وترون إعلان البراءة من أعداء الإسلام والظالمين كفراً؟!))[6].

١- ن . م.

٢- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة / ١٤٠٤.

٣- ن .م .

٤- المائدة: ٩٧.

٥- خطاب الإمام: ٨/ ذي العقدة / ١٤٠٣هــ.

٦- ن . م.

وفي نفـــس الخطـــاب، أكد على الدور السيّيء لـــ (وعاظ السلاطين) في إفراغ الحج من محتواه ومضمونه بإبعاده عن السياسة والاجتماع، وأنهم بمقولاتهم ((يدينون رسول الله(ص)، ويدينون أئمة الهدى))[1].

وفي عـــام ١٤٠٧هــ، أشار الإمام في خطابه التاريخي إلى تصاعد دور (العناصر الثلاثة) في الوقوف أمام الوعي السياسي لفريضة الحج ومناسكه، الذي بدأ ينتشر في صـــفوف المســـلمين، وحذر من تسخير (الناهبين الدوليين) لعلماء البلاط، ووعاظ السلاطين؛ لإشاعة فلسفتهم وتحليلاتهم الخاطئة والمنحرفة، التي تجرد الحج من مقاصده السياســية وغاياته الاجتماعية تحت شعار (قدسية الكعبة وحرمتها). هذا إضافة إلى (المتنســكين الجاهــلين) (العنصر الثالث ـــ ب) الذين يرون أن الحج ليس له علاقة بالأمور السياسية.

يــرى الإمــام أن مقولات هؤلاء هي ((من إيحاءات ومكر السياسات الخفية للناهبين الدوليين))[2].

وفي آخر نداء تاريخي له وجهه عام (١٤٠٨هــ) إلى الحجيج الآتين من كل فج عميق، سلط الأضواء على الدور الخطير لمن أسماهم بـــ (أحفاد بلعم بن باعورا)[3] في

١- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة / ١٤٠٧هــ.

٢- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة / ١٤٠٧هــ .

٣- أمر الله نبيه أن يتلو نبأه ـــ كما ورد في الرواية ـــ لما فيه من عبرة كبيرة لمصير العالم الذي يتبع هواه، ويكون من وعاظ السلاطين وعلماء البلاط: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين • ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث..) الأعراف: ١٧٥ ـــ ١٧٦).

وقد جاء في رواية الإمام الرضا(ع): ((لا أنه أعطي (بلعم بن باعورا) الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيستجاب له، فمال إلى (فرعون). فلما مر (فرعون) في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليمر في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته، فأقبل يضربها، فأنطقها الله عزوجل، فقالت: ويلك على ماذا تضربني؟! أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟! ولم يزل يضربها حتى قتلها فانسلخ الاسم من لسانه، وهو قوله: (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان...) وهو مثل ضربه (الله))) (تفسير القمي/ ١ / ٢٤٨).

طمـــس فلسفة ومقاصد فريضة الحج، وتفريغها من محتواها الفاعل، ليكون الحج ((ما هـــو إلا رحـــلة سياحية يتم فيها زيارة (القبلة) و(المدينة) لا أكثر ! وذلك من خلال تساؤلاتهم التعجبية الاستنكارية حول علاقة الحج بالسياسة ومشاكل المسلمين والناس المستضعفين في العالم:

ما علاقة الحج بالبحث عن أساليب الجهاد والنضال، وسبل مواجهة قوى الشرك والاستكبار؟

ما علاقة الحج بالمطالبة بحقوق المسلمين والمستضعفين من الظالمين الجائرين؟

ما علاقة الحج بمشاكل المسلمين ومعاناتهم، والتفكير بإيجاد الحلول لها؟

ما علاقة الحج بظهور المسلمين كقوة كبرى ومقتدرة في العالم؟

مـــا علاقـــة الحج بدعوة المسلمين إلى القيام والنهوض والانتفاضة ضد الأنظمة الطاغوتية العميلة التي تتحكم على رقابهم؟!))[1].

أهم (المنافع) السياسية

في كثير من خطاباته السنوية في موسم الحج أعطى الإمام أهم المفردات السياسية والاجتماعية لمنافع الحشد المليوني الهائل للمسلمين الملبين نداء الحج، من شرق الأرض وغربها.

ومن خلال استقراء تلك الخطابات والنداءات نستطيع أن نتلمس أهم تلك المنافع والمفردات:

المنفعة الأولى: قطع يد الاستكبار العالمي عن الامة الإسلامية.

يصـــرح الإمام في أكثر من خطاب بأنه لاتوجد منفعة أعظم وأسمى من قطع يد الاستكبار العالمي عن أمتنا الإسلامية بل عن المسضعفين جميعاً:

١- خطاب الإمام: ٤/ ذي الحجة / ١٤٠٨هـ.

((وأي منافع أعظم وأسمى من قطع يد جبابرة العالم والظالمين من السيطرة على البلدان المظلومة، ومن أن تكون الذخائر المادية العظيمة للبلدان ملكاً لشعوبها؟))[1].

وفي خطاب آخر يقول:

((على المسلمين المجتمعين في مواقف هذه العبادة الرامية إلى تجميع المسلمين من كل أرجاء الأرض، ليشهدوا منافع لكل المستضعفين في العالم، وأي منافع أعظم من قطع يد الطامعين عن البلدان الإسلامية؟))[2].

المنفعة الثانية: التفاهم وترسيخ الاخوة بين المسلمين.

يعتبر الإمام ((أنّ، واحداً من أهم أركان فلسفة الحج هو إيجاد التفاهم وترسيخ الاخوة بين المسلمين))[3]. ولا يكاد يخلو خطاب للإمام في موسم الحج من الدعوة إلى وحدة الكلمة بين المسلمين، وضرورة نبذ الفرقة والتمزق والتشتت الذي يسعى أعداء الإسلام إلى إبقائه والمحافظة عليه.

ولهذا يرى الإمام أن ((من واجبات هذا التجمع العظيم، دعوة الناس والمجتمعات الإسلامية إلى وحدة الكلمة، وإزالة الخلافات بين فئات المسلمين. وعلى الخطباء والوعاظ والكتاب أن، يهتموا بهذا الأمر الحيوي، ويسعوا إلى إيجاد جبهة للمستضعفين للتحرر ــ بوحدة الجبهة ووحدة الكلمة وشعار (لا إله إلا الله ــ من أسر القوى الأجنبية الشيطانية والمستعمرة))[4].

من هذا النص يظهر جلياً أن المنفعة الأولى (قطع يد الاستكبار) لا تأتي إلا بتحقيق المنفعة الثانية (الوحدة والتآزر).

من هذا المنطلق يخاطب الإمام حجاج بيت الله الحرام كافة قائلاً: ((تبادلوا وجهات النظر، وتفاهموا لحل مشاكل المسلمين المستعصية. اعلموا أن هذا الاجتماع

١- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة / ١٤٠٤هـ.

٢- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة /١٤٠٤هـ

٣- خطاب الإمام: ٢٨/ شوال / ١٣٩٩هـ.

٤- خطاب الإمام: ٧/ ذي القعدة / ١٣٩٩هـ.

الكــبير الــذي يعقــد سنوياً بأمر الله في هذه الأرض المقدسة يفرض عليكم ـــ أنتم المســلمين ـــ أن تــبذلوا الجهــود على طريق الأهداف الإسلامية المقدسة ومقاصد الشريعة المطهرة السامية، وعلى طريق تقدم المسلمين وتعاليهم واتحاد المجتمع الإسلامي وتلاحمه)).

المنفعة الثالثة: اجتماع رجال السياسة في العالم الإسلامي

يــرى الإمــام أن هــناك فرصة ذهبية لزعماء السياسة في العالم الإسلامي أن يستثمروا موسم الحج، ليعقدوا في مكة مؤتمراً إسلامياً عالمياً يطرحون فيه كل مشاكل المســلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ليكتشفوا لها الحلول الناجعة: ((على زعماء القوم أن يجتمعوا في مكة المعظمة استجابة لأمر الله تبارك وتعالى، وأن يطرحوا مشــاكلهم بيــنهم ويتغلبوا عليها. ولو حدث ذلك ما استطاعت القوى الاخرى أن تقف بوجههم مهما كانت عظمتها)).

ويتســاءل الإمــام مستغرباً ومتعجباً عما آلت إليه أوضاع المسلمين: لماذا يغفل المســلمون عن قدرة الإسلام العظيمة التي مكنت شعباً ليغلب بيد خالية دولة غاصبة كبرى؟

لماذا تعيش الحكومات الإسلامية الغفلة عن هذه القوة العظيمة المقتدرة؟

لماذا تتلقى الحكومات العربية الصفعات خلال السنوات المتمادية من الصهيونية؟

لماذا كل هذا الستسلام والرضوخ لسيطرة القوى الأجنبية؟

لمــاذا لا يجتمعون ولا يتعاضدون ليكونوا تجسيداً لقول النبي الأعظم(ص) (يداً على من سواهم).

إن مشكلة المسلمين تكمن في العداء المرير بين الحكومات الإسلامية الذي أنشأه الاستعمار بعد الحرب العالمية[1] .

١- خطاب الإمام: ١٠ / ذي الحجة/ ١٤٠٠هـــ.

من هذا المنطلق يقترح الإمام ذهاب رجال السياسة والفكر والأدب والثقافة إلى الحج، وأن لا يقتصر الحج على عامة الناس.

إنـــه يـــنفث زفرات اللوعة والأسف على غفلة المسلمين عن هذا الأمر الحيوي والفـــاعل، حيث يقول: ((نحن الآن ليس لنا من التشرف بمكة وحج بيت الله الحرام ســـوى ذهـــاب مجموعة من عامة الناس إلى هناك، ومع الأسف الشديد فإن مسألة ذهاب أشخاص من الحكومات ورجال القوم (من أصحاب الفكر والكتاب والثقافة)، ليجـــتمعوا هناك ويدرسوا مسائل الإسلام والمسائل السياسية والاجتماعية للمسلمين، هذه المسألة مغفول عنها.

إن مشـــاكل المســـلمين كثيرة، ولكن مشكلة المسلمين الكبرى هي أنهم وضعوا القرآن الكريم جانباً وانضووا تحت لواء الآخرين)).

((القـــرآن الكـــريم يقـــول: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[1] ولو عمل المســـلمون بهـــذه الآيـــة الواحـــدة، لانحلت جميع مشاكلهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من دون التشبث بالآخرين))[2].

المبحث الثاني: آية البراءة من المشركين

انطلاقاً من آية البراءة: (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله)[3] ، دعا الإمام الخميني الحجيج الآتين من كل فج عميق ليشـــهدوا مـــنافع لهم، إلى ضرورة إعلان البراءة من المشركين والمستكبرين في موسم الحـــج، وفي مكة المكرمة، ليطلقوا ((بجوار بيت التوحيد صرخة البراءة من المشركين والملحدين من مستكبر رأسه أمريكا المجرمة))[4].

١- آل عمران : ١٠٣.

٢- خطاب الإمام: ١٠/ ذي الحجة / ١٤٠٠هـــ.

٣- التوبة: ٣.

٤- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة / ١٤٠٤هـــ.

وما ركز الإمام على آية من الآيات المباركة في فريضة الحج، كما ركز على آية البراءة، حيث إنه سلط الأضواء الكاشفة على هذه الآية، ودعا بكل قوة وإصرار إلى تجسـيدها في واقعنا المعاصر.. حتى لا نعيش التفسير الدلالي والمفاهيمي للقرآن بعيداً عن التجسيد والتطبيق.

ولا يكـاد يخلو خطاب من خطابات الإمام في موسم الحج من ذكر لآية البراءة ودعوة إلى تجسيدها في واقعنا المعاصر.

ويمكن تلخيص تفسيره الدلالي والتطبيقي لآية البراءة بالنقاط التالية:

أولا: إعلان البراءة احياء لذكرى حادثة سياسية كبرى

يرى الإمام أن ((إرسال سورة (براءة) لقراءتها في ذلك الجمع إنما كان يستهدف تعليمنا ضرورة قراءة سورة براءة في ذلك المكان))[1].

كمـا يـرى أن إعلان البراءة في موسم الحج يعتبر ((إحياء لذكرى أهم وأكبر حركة سياسية للرسول(ص)، التي عبر عنها القرآن بقوله: (وأذان من الله ورسوله إلى الـناس يـوم الحـج الأكـبر أن الله بريء من المشركين ورسوله)، ذلك لأن سنة الرسول(ص) وإعلان البراءة لن يبليا))[2].

إن ((إعـلان الـبراءة مـن المشـركين في موسم الحج، هو إعلان سياسي ـــ عبادي))[3].

ومهمـا اختلف المفسرون في تعيين المراد من يوم الحج الأكبر ـــ يوم النحر كما جـاء في روايات أهل البيت(ع) أو يوم عرفة أو جميع أيام الحج ـــ فإن الآية المباركة واضـحة في دلالتها في إعلان البراءة من المشركين في أكبر يوم من أيام الحج، حيث يجـتمع المسلمون الآتون من كل فج عميق، ليشتركوا في مراسم إعلان صرخة البراءة

١- خطاب الإمام: ١٠ / ذي الحجة / ١٤٠٥هـ.

٢- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة / ١٤٠٧هـ.

٣- خطاب الإمام: ١٠ / ذي الحجة / ١٤٠٣هـ.

تلك، وليكونوا على اهبة الاستعداد لإنفاذ أمر الله فيهم بقتال أعداء الله بعد انسلاخ الأشهر الحرم (حيث وجدتموهم) في أي زمان ومكان، في حل أو حرم، وبأي وسيلة ممكنة بالأخذ أو الحصر أو القعود لهم في كل مرصد (وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم مكل مرصد) حتى يفنوا عن آخرهم، وتطهر الأرض من وجودهم.

وقـــد ذكر المفسرون من الفريقين أن الرسول الأكرم(ص) كان قد بعث أبا بكر مـــع (براءة) ليقرأها على الناس فتزل جبرئيل(ع) فقال: لا يبلغ عنك إلا علي، فأمر رسول الله(ص) علياً أن يلحق أبا بكر ليأخذها منه ويقرأها على الناس.

فقـــد جاء في الدر المنثور للسيوطي: أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المســـند، وأبـــو الشيخ وابن مردويه عن علي(ع) قال: لما نزلت عشر آيات من براءة عـــلى النبي(ص) دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني فقال لي، أدرك أبابكر فحيـــثما لقيـــته فخذ الكتاب منه. ورجع أبو بكر، فقال: يارسول الله نزل في شيء؟ قال: لا، ولكن جبريل جاءني فقال لي: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك))[1].

وفي الـــدر المنثور كذلك: أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله(ص) بعث أبا بكر ببراءة إلى أهل مكة، ثم بعث علياً على أثره، فأخذها منه فكأن أبـــا بكر وجد في نفسه، فقال النبي(ص): يا أبا بكر إنه لايؤدي عني إلا أنا أو رجل مني))[2].

١- الدر المنثور / ٣ /٢٠٩.

٢- ن . م. ومن عجب ما أوله بعض المفسرين كالآلوسي في (روح المعاني)، حيث يقول: وقوله(ص): ((لا يبلغ عني...)) جار على عادة العرب أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه إلا رجل من الأقارب لتنقطع الحجة بالكلية (روح المعاني / ١٠ / ٤٥).

يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان): أبدع بعض المفسرين كابن كثير وأترابه هنا وجهاً وجهوا ما تتضمنه هذه الروايات ... أن تعيينه(ص) علياً بتبليغ آيات براءة أهل الجمع إنما هو لما كان من عادة العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بيته، ومراعاة هذه العادة الجارية هي التي دعت النبي(ص) أن يأخذ براءة ـــ وفيها نقض ما للمشركين من عهد ـــ الى بكر ويسلمها إلى علي ليستحفظ بذلك السنة العربية فيؤديها عنه بعض أهل بيته)). (الميزان / ٩ / ٦٨).

مــن هذا المنطلق يعتبر الإمام أن إعلان البراءة يمثل حدثاً تاريخياً عظيماً في مسيرة الإســلام بقيــادة الرسول الأكرم(ص)، قد حقق انعطافة في الموقف تجاه المشركين وأعــداء الديــن، وإنــنا إذا قمنا بإعلان البراءة في موسم الحج فإنما هو تأس برسول الله(ص) وإحياء لسنته.

ولهذا يستنكر الإمام على فتاوى (وعاظ السلاطين) و(علماء البلاط) من تحريمهم إعــلان الــبراءة في مكــة، وفي موسم الحج، بحجة الأمن والسلامة وقدسية الكعبة المشرفة!!

يخــاطب الإمام ذلك ((الواعظ العميل الذي يرى الهتاف ضد أمريكا واسرائيل مخالفــاً لمراسم الحج))، قائلاً: ((وهل التأسي برسول الله واتباع أمر الله مخالف لمراسم الحج؟

هل أنت وأمثالك من الوعاظ الأمريكيين تخطّئون فعل رسول الله(ص) وأمر الله؟

هل التأسي بتلك الشخصية الكبرى، وإطاعة أمر الله تعالى مخالف للإسلام؟

هل تنزهون مراسم الحج من البراءة من الكفار؟

أتغطــون على أوامر الله ورسوله من أجل مصالحكم الدنيوية، وترون البراءة من أعداء الله من محاربي المسلمين ومن الظالمين ولعنهم كفراً؟[1]

ولم يشــجب الإمــام (وعــاظ الســلاطين) فحسب، بل هناك ممن يسميهم ((المتنســكين الجاهــلين)) يدعون ـــ كذلك ـــ أن حرمة وقدسية الكعبة المعظمة، تنتهك برفع الشعارات وإقامة التظاهرات والمسيرات وإعلان البراءة[2]

ويعتــبر الإمام أن ((مثل هذه الأقاويل هي من إيحاءات وخبث السياسات الخفية للناهــبين الدوليــين، ولابد للمسلمين أن ينهضوا، وبكل ما لديهم من إمكانات... لخوض المواجهة الجادة، والدفاع عن القيم الإلهية ومصالح المسلمين))[1].

١- خطاب الإمام: ١٠ / ذي الحجة /١٤٠٣.

٢- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة /١٤٠٧هـ.

ثانياً: الكعبة أجدر وأنسب بيت لإعلان البراءة

يتساءل الإمام متعجباً ومستنكراً على أولئك الذين يعتبرون إعلان البراءة في موسم الحج يسيء إلى فريضة الحج ومناسكها، كما يسيء إلى قداسة البيت الحرام، قائلاً:

((وأي بيت أفضل وأنسب وأجدر من (الكعبة) المشرفة، بيت الأمن والطهارة والناس [2]؛ لإعلان البراءة، قولاً وعملاً، بوجه كل أشكال الظلم والاستغلال والعبودية والدناءة واللا إنسانيه؟ [3].

((إذا لم يعلن المسلمون براءقم من أعداء الله في بيت الناس وبيت الله، فأين اذن يعلنون البراءة؟

وإذا لم يكن الحرم والكعبة والمسجد والمحراب معاقل وسنداً لجنود الله والمدافعين عن الحرم وحرمة الأنبياء، فأين إذن يكمن مأمنهم وملجؤهم؟)) [4].

ينطلق الإمام بنظرته هذه إلى دور الكعبة والمسجد الحرام، من منطلق القرآن الذي تعطي آياته بكل صراحة ووضوح ذلك الدور العظيم الذي لا ينفك عن القيام والنهوض والبراءة من المشركين والمستكبرين.

الآية الاولى: (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) [5].

يرى الإمام: أن الله عز وجل في هذه الآية المباركة ((يقرر أن سر الحج وبواعثه والغاية من الكعبة والبيت الحرام هي نهوض المسلمين وقيامهم في سبيل مصالح الناس والجماهير المستضعفة في العالم)) [6].

١- ن. م.

٢- إشارة إلى قوله تعالى: (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) سورة البقرة: ١٢٥.

٣- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة /١٤٠٧هـ.

٤- ن . م.

٥- المائدة: ٩٧.

٦- خطاب الإمام: ٧/ ذي القعدة / ١٤٠١هـ.

لقد بدأ خطابه عام ١٤٠١ والموجه إلى حجاج بيت الله الحرام، بآية القيام، أعطى فيه السبل التي تجعل من ذلك التجمع المليوني في موسم الحج مصدر نهوض المسلمين وقيامهم في سبيل مصالح الناس المستضعفين في العالم.

ولن يتحقق ذلك القيام إلا إذا وعى المسلمون الآتون من كل فج عميق مقاصد وأهداف الحج الكبرى، وعرفوا واجباتهم في ذلك ((التجمع الإلهي العظيم الذي لا تستطيع أي قدرة سوى قدرة الله أن تعقده)).

ودراسة مشاكل المسلمين، وبذل الجهود في سبيل إيجاد الحلول لها، هو الواجب الأول الذي يجب أن يضطلع به أولئك الحافون حول بيت الله الحرام.

ويرى الإمام: أن ((إحدى أكبر هذه المشاكل وأكثرها أهمية هي عدم الوحدة بين المسلمين وتمزقهم وتشتتهم))[١]. ((هذا المسجد الحرام ومساجد عصر رسول الله(ص) كانت مركز الحروب، ومركز السياسات والشؤون الاجتماعية والسياسية))[٢]. ((لو أننا ذهبنا إلى الحج، ولم نأخذ بنظر الاعتبار مصالح المسلمين، بل وخلافاً لمصالح المسلمين نغطي على الجرائم التي ترتكب بحقهم، ولاندع المسلمين يتداولون ما ترتكبه بحقهم الحكومات والقوى الكبرى من جرائم ومظالم، فليس هذا بحج؛ لأنه صورة فاقدة للمعنى، وشكل مفرغ من المضمون))[٣].

الآية الثانية: (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود)[٤].

انطلاقاً من هذه الآية المباركة يرى الإمام أن ((الكعبة التي هي أم القرى وما امتد منها حتى آخر نقطة في الأرض ــ وإلى آخر يوم من حياة العالم ــ ينبغي أن تطهر من لوثة الأصنام مهما كانت هياكل أم شمساً أم قمراً أم حيواناً أم إنساناً. وأي منهم

١- خطاب الإمام: ٧/ ذي القعدة / ١٤٠١هـ.

٢- خطاب الإمام: ٧/ ذي القعدة / ١٤٠١هـ.

٣- خطاب الإمام: ٨ / ذي القعدة / ١٤٠٣هـ.

٤- خطاب الإمام: ٨ / ذي القعدة / ١٤٠٣هـ.

أسوأ من (الطواغيت) على مر التاريخ، ابتداءً من زمان آدم صفي الله ومروراً بإبراهيم خـــليل الله ومحمـــد حبيب الله... حتى آخر الزمان، حيث يرفع محطم الأصنام نداء التوحيد من الكعبة؟!)).

ويشـــجب الإمام النظرة الضيقة الخاطئة للأصنام، التي تحصرها بالأصنام الحجرية فحسب، حيث يتساءل: ((أليست القوى الكبرى في زماننا هذا أصناماً كبرى تدعو الـــناس إلى طاعـــتها وعـــبادتها والخضـــوع لها، وتفرض نفسها عليهم بالقوة والمال والتزوير؟

مكـــة المعظمة هي المركز الوحيد لتحطيم هذه الأصنام. إن إبراهيم الخليل(ع)، وحـــبيب الله محمـــداً(ص)، وابـــنه العزيز المهدي الموعود ـــ روحي فداه ـــ رفعوا وسيرفعون نداء التوحيد في آخر الزمان من الكعبة المشرفة)).

((والمهـــدي المنـــتظر على لسان كل الأديان وبإجماع المسلمين يرفع نداءه من الكعـــبة، ويدعـــو البشرية إلى التوحيد، والجميع يرفعون نداءهم من مكة، وعلينا أن نتبعهم، ونعلن كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة من ذلك المكان المقدس))[1].

((وما لم نعقد الاجتماعات الحية المدوية في مركز تجمع المسلمين (مكة المكرمة)، وما لم نكسر الأصنام ونرجم الشياطين وعلى رأسهم الشيطان الأكبر في (العقبات)، لـــن يكون حجنا حج خليل الله وحبيب الله وولي الله المهدي العزيز، ولقيل في حقنا: ((ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج))![2]

الآية الثالثة: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدًى للعالمين)[3].

هـــذه الآية المباركة ـــ كما يرى الإمام ـــ تقرر أنه ليس هناك أولوية ببيت الله عـــلى سائر الناس، لشخص أو مجموعة أو طائفة.. فإن الناس جميعاً، أينما كانوا، وفي

١- البقرة: ١٢٤.

٢- خطاب الإمام: ١٠/ ذي الحجة / ١٤٠٣هـــ.

٣- آل عمران: ٩٦.

أي بقعــةٍ من بقاع الأرض، في مشارقها ومغاربها، مكلفون أن يكونوا مسلمين، وأن يجتمعوا في هذا البيت الذي وضع للناس، وأن يزوروا هذا البيت المقدس.

((بيــت الله الحرام هو أول بيت وضع للناس، إنه بيت عام، ليس لشخص ولا لــنظام ولا لطائفة حق الاولوية فيه، سواء فيه أهل البادية وسكنة الصحراء المتنقلون، والعاكفون وسكنة المدن)): (سواءً العاكف فيه والباد)[1].

((هــذا الــبيت المعظم بني للناس، ولقيام الناس، وللنهوض العام، ولمنافع الناس، وأي منافع أعظم وأسمى من قطع يد جبابرة العالم والظالمين من السيطرة على البلدان المظلومة))[2].

ثالثاً: صرخة البراءة هي صرخة المستضعفين المظلومين.

يــرى الإمــام أن إعــلان البراءة لا يتجزأ؛ لأنه يمثل صرخة براءة المستضعفين والمحــرومين بوجه المستكبرين الظالمين.. وبالتالي يعبر إعلان البراءة في موسم الحج من قــبل المســلمين الآتين من أصقاع الأرض الإسلامية عن الرفض لكل الظالمين الذين يتحكمون برقاب المسلمين.

يقول الإمام: ((إن صرخة براءتنا من المشركين والكافرين اليوم هي صرخة البراءة مــن الظلم والظالمين، هي صرخة امة ضاقت ذرعاً باعتداءات الشرق والغرب، وعلى رأسهم أمريكا وأذنابها، وغضب من نهب بيتها وثرواته)).

ثم يقــول: ((إن صــرخة براءتنا هي صرخة الشعب الأفغاني المظلوم ضد الاتحاد السوفيتي)).

((وإن صرخة براءتنا هي صرخة الشعوب المسلمة المضطهدة في أفريقيا)).

((إن صرخة براءتنا هي صرخة الشعبين اللبناني والفلسطيني..)).

١- خطاب الإمام: ٢٨ / ذي الحجة / ١٤٠٠هــ.

٢- ن .م .

((إن صـــرخة براءتـــنا هي صرخة جميع الذين ما عادوا يتحملون فرعنة أمريكا وتواجدها السلطوي..)).

((إن صرخة براءتنا هي صرخة الدفاع عن الشعوب والكرامات والنواميس..)).

((إن صـــرخة براءتنا هي صرخة الفقراء والجياع والمحرومين الذين نهب الجشعون والقراصنة الدوليون حصيلة كد يمينهم وعرق جبينهم)).

المبحث الثالث: آية سقاية الحاج

حـــرص القـــرآن الكريم على تحديد مقاصد وأهداف فريضة الحج ومناسكها، والـــدور الـــذي يضطلع به بيت الله الحرام، واستنكر المحاولات التي تجعل ما ليس في المقاصد والأهداف والقيم مقصداً أكبر وهدفاً أسمى وقيمةً أعلى.

مـــن هذا المنطلق نزلت آية (سقاية الحاج) لتحبط إحدى تلك المحاولات الخاطئة في تشـــخيص القيم والأولويات، على أثر تلك الحادثة المعروفة التي يذكرها المفسرون في أسباب نزول[1] قوله تعالى:

(أجعلـــتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله...)[2].

يرى الإمام الخميني أن هذه الآية الشريفة كأنها نزلت اليوم، وفي واقعنا المعاصر، حيث اعتبر بعض أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من أكبر الأعمال والمنجزات والمقاصد في موسم الحج، وراح يفتخر بذلك.. من خلال الحديث عن الخدمات التي

١- جاء في تفسير الطبري بإسناده عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب. فقال طلحة: أنا صاحب البيت، معي مفتاحه، لو أشاء بت فيه!

وقال عباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بت في المسجد!

وقال علي: ما أدري ما تقولان؟! لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد! فأنزل الله: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) الآية .. (تفسير الطبري: ٦: ٣٣٧).

٢- التوبة: ١٩.

يوفــرها، والتوسعات المعمارية التي أنشأها، وما إلى ذلك من الامور التي تدخل تحت عنوان (سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام).

ولهذا يقول الإمام:

((كــأن هــذه الآيــة الشريفة نزلت في عصرنا، وتحكي عن حالنا، وتصف الانشــغال بسقاية الحاج وبعمارة المسجد الحرام ــ مع الغفلة عن الإيمان بالله وباليوم الآخــر، والابــتعاد عــن الجهــاد في سبيل الله ــ بأنه ظلم، وتعتبر الفاعلين لذلك ظالمين))[1].

وقد نبه الإمام إلى هذه الحقيقة القرآنية، قائلاً: ((ها أنا أغتنم هذه الفرصة؛ لأشير إلى إحــدى آيــات الكــتاب الكريم، حيث يقول جل وعلا: (أجعلتم سقاية الحاج وعمــارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين)[2].

ويوضــح الإمام دلالات الآية المباركة بقوله: ((إن الله سبحانه وتعالى يقول في هــذه الآيــة: أنتم ذوي القلوب العمياء، أمن الممكن أن تساووا بين سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وبين أولئك الذين آمنوا بالله وبيوم الجزاء وجاهدوا في سبيل الله؟ حاشا أن تتساووا أنتم وأولئك، فالله لايهدي القوم الظالمين))[3].

ثم يســتفيد مــن سياق الآية المباركة نكتة رائعة، بذكر الجهاد في سبيل الله بعد الايمان بالله واليوم الآخر، فيقول: ((إن ما يلفت النظر في هذه الآية هو أن الله سبحانه قــد ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد اختار من بين كل القيم الإسلامية الإنسانية، الجهــاد في سبيل الله ضد أعداء الله وأعداء البشرية، وجاء به مباشرة بعد الايمان بالله

١- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة /١٤٠٤هـ.

٢- خطاب الإمام: ٧/ ذي الحجة /١٤٠٧هـ.

٣- خطاب الإمام: ٧/ ذي الحجة / ١٤٠٧هـ.

ويـــوم الجـــزاء، وقد علم المسلمون كافة من هذا الاختيار أن أهمية الجهاد تفوق كل شيء))[1].

ويؤكـــد الإمـــام ــ في خطـــاب آخر، وانطلاقاً من آية (سقاية الحاج) ــ أن ((ســـدانة البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام غير كافية، ولا ترتبط بالهدف والمقصد))[2].

ولهذا يرى أن ((بساطة البيت والمسجد ــ كما كانا عليه زمان إبراهيم(ع) وفي صدر الإسلام ــ مع تلاحم المسلمين الوافدين على ذلك المكان البسيط، أفضل ألف مـــرة من تزيين الكعبة والأبنية المرتفعة فيها، مع الغفلة عن الهدف الأصلي، والمقصد الأســـاس المتمـــثل بقيام الناس وشهود المنافع: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحـــرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهـــدي القـــوم الظـــالمين)[3] ، كأن هذه الآية الشريفة نزلت في عصرنا، وتحكي عن حالنا!!))[4].

المسجد: مركز انطلاق زحف القوات الإسلامية

((إن المسجد في صدر الإسلام، كان دوماً مركز النهضة والتحركات الإسلامية. مـــن المسجد كانت تنطلق الدعوة إلى الإسلام. ومن المسجد كانت تزحف القوات الإسلامية لقمع الكفار، أو لجذبهم تحت راية الإسلام))[5].

((هـــذا المســـجد الحـــرام ومساجد عصر الرسول(ص) كانت مركز الحروب والمعـــارك، ومركـــز السياســـات والشؤون الاجتماعية والسياسية. لم يكن مسجد الـــنبي(ص) مقتصـــراً على المسائل العبادية كالصلاة والصيام فحسب بل إن مسائله

١- خطاب الإمام: ٧/ ذي الحجة / ١٤٠٧هـــ.

٢- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة / ١٤٠٤هـــ.

٣- التوبة: ١٩.

٤- ن .م .

٥- خطاب الإمام: ٢٣/ جماى الأولى / ١٣٩٩هـــ.

السياســية كانت أكثر، فمتى ما أرادوا إرسال المقاتلين إلى ساحات القتال والجهاد، وتعبئتهم في الحروب والمعارك، كان المسجد هو المركز والمنطلق))[1].

لقد كان الإمام ــ وانطلاقاً من آيات القرآن التي تتحدث عن الكعبة ودورها في القيــام والنهضــة ــ يرى أن البيت الحرام ((اسس للقيام .. لقيام الناس، كما أسس للــناس .. فــيجب ــ إذن ــ الاجتماع فيه لهذا الهدف الكبير، ويجب تحقيق منافع الناس في هذه المواقف المشرفة)). ويؤكد ــ انطلاقاً من آية (سقاية الحاج) ــ على أن ((ســدانة البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام غير كافية، ولا ترتبط بالهدف والمقصد))[2].

ولهذا كان يخاطب الحجاج الوافدين على بيت الله بأن يتجهزوا من (مركز تحطيم الأصــنام) لتحطــيم الأصــنام السياسية والطاغوتية في العالم، حيث يقول: ((أنتم يا حجــاج بيت الله الحرام، يا من وفدتم من أقطار العالم وأكنافه على بيت الله، مركز الــتوحيد ومهــبط الوحــي ومقام إبراهيم ومحمد، الرجلين العظيمين الثائرين على المستكبرين، وسارعتم للوصول إلى المواقف الكريمة التي كانت في عصر الوحي أرضاً يابســة وهضاباً قاحلة، غير أنها كانت مهبط ملائكة الله ومحلاً لهجوم جنود الله... اعرفوا هذه المشاعر الكبرى وتجهزوا من مركز تحطيم الأصنام لتحطيم الأصنام الكبرى الــتي ظهرت على شكل قوى شيطانية، وغزاة يمتصون الدماء، ولا تخشوا هذه القوى الفارغــة مــن الإيمان. وفي هذه المواقف الكريمة، وبالتوكل على الله العظيم، اعقدوا بيــنكم ميــثاق الاتحــاد والاتفاق في مواجهة جنود الشرك والشيطان، واحذروا من التفرق والتنازع (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم). إن ريح الإيمان والإسلام ــ

١- خطاب الإمام: ٨/ ذي القعدة / ١٤٠٣هـ.

٢- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة / ١٤٠٤هـ.

التي هي أساس النصر والقوة ـــ تزول وتذهب بالتنازع والتشرذم المنطلق من الأهواء النفسية والانانيات))[1].

إعلان البراءة: الخطوة الأولى في طريق الجهاد والنضال

يؤكـــد الإمـــام أن إعـــلان البراءة في موسم الحج، في مكة المكرمة، ليس مجرد ((شـــعارات وهتافات)) فحسب، بل إنه يتعدى ذلك ((إلى تعبئة الأمة وتنظيم جنود الله في مواجهة جنود إبليس)).

ويصـــرح: بأن إعلان البراءة ((هو المرحلة الاولى في طريق الجهاد والكفاح، وأن مواصـــلة المراحل الاخرى هي من واجبنا، حيث إن أداءه في كل عصر وزمان يختلف باختلاف الأساليب ومتطلبات العصر)).

ويشـــجب الإمـــام تلك المحاولات التي تريد تفريغ الحج من مضمونه الجهادي الثوري التعبوي، من خلال:

أولاً: ((إلقاء روح اليأس والعجز والخنوع في نفوس المسلمين)).

ثانيـــاً: ((الإيحـــاء بأن محاربة ومقارعة الأنبياء للأصنام ولعبادة الأوثان، تنحصر وتقتصر على الحجارة والأخشاب الجامدة التي لا روح فيها، وأن أنبياء مثل (إبراهيم) الـــذي كـــان سباقاً في تحطيم الأصنام، قد اقتصر عمله ـــ والعياذ بالله ـــ على تلك الأصنام الحجرية، وترك ساحة الجهاد وميدان النضال ضد الظالمين)).

ويـــرد الإمام على هؤلاء المتآمرين على الحقائق القرآنية والتاريخية بأن ((كل ما أقـــدم عليه النبي إبراهيم من تحطيم الأصنام وجهاد النمروديين وعبدة الشمس والقمر والنجوم، ما هو إلا مقدمة لهجرة كبرى، وإن كل تلك الهجرات والشدائد والصعاب والعيـــش في وادٍ (غير ذي زرع) وبناء البيت والتضحية بإسماعيل، كانت مقدمة لبعثه

١- خطاب الإمام: ٩/ ذي الحجة / ١٣٩٩هـــ.

ورسالة ختمت فيها الرسل، وضمت عودة لحديث أول وآخر بناة ومؤسسي الكعبة، وأبلغت رسالتها الأبدية بكلامٍ خالد: (إني بريء مما تشركون)).

مقارعة الأوثان المعاصرة

يـــرى الإمام أن الاقتصار على الرؤية التاريخية القديمة للأصنام ومعابدها، يوصلنا إلى نتـــيجة خاطئة وهي: ((عدم وجود صنم أو وثن وعبادته في هذا العصر))، ولذا يـــرى أنه لايوجد إنسان عاقل في الدنيا ((لا يدرك عبادة الأصنام الجديدة وأحابيلها، ولا يعرف هيمنة معابد الأصنام في واقعنا المعاصر ـــ كالبيت (الأسود) الأمريكي ـــ على البلاد الإسلامية، وعلى أرواح وأعراض المسلمين والعالم الثالث..))[1].

يـــرى الإمـــام أن عصـــرنا زاخر بالأصنام والأوثان ومعابدها، وأن الطاغوت السياسي هو الصنم الكبير الذي دعانا القرآن إلى رفضه والثورة عليه:

(فمـــن يكفـــر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها)[2].

(الله ولي الذيـــن آمـــنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات)[3].

إنـــه الصراع التاريخي المرير بين أولياء الله وأولياء الطاغوت، وما صراعنا المعاصر إلا امـــتداد لذلـــك التصارع والتدافع، وتبقى المصاديق للطاغوت والظلمات ثابتة في مضمونها وإن اختلفت أشكالها.

ويعطي الإمام المصاديق المتنوعة للظلمات:

(الجهـــل) و(المعصـــية) و(التـــبعية للغرب والانبهار به) ويعتبر الأخير من أشد الظلمات ((لأن جميع مشاكلنا ومصائبنا تكمن في أننا فقدنا أنفسنا، ونسينا مفاخرنا،

١- خطاب الإمام: ١٠ ذي الحجة / ١٤٠٧هـ.

٢- البقرة: ٢٥٦.

٣- البقرة: ٢٥٧.

وقضـــينا عـــلى كرامتنا واستقلالنا ووطنيتنا. كل هذه ظلمات، والطاغوت هو الذي أخرجـــنا مـــن نور الاستقلال والوطنية والإبداع العلمي، إلى ظلمات التبعية والذيلية والشعور بالدونية)).

بيد أن أكبر هذه الظلمات وأحلكها وأخطرها هي ظلمة (الأنانية) لأنها ((العدو الأســـوأ من كل الأعداء، والوثن الأكبر من كل الأوثان، بل هي ام الأوثان، وما لم يحطم الإنسان هذا الوثن لا يمكن أن يصبح إلهياً؛ لأنه لا يمكن الجمع بين الله والوثن، وبين الإلهية والأنانية))[1].

ومـــن منطـــلق هذه الرؤية القرآنية الرائعة والمعاصرة لمعنى (الطاغوت) و(الوثن) و(الصـــنم) يمـــتزج الـــبعد السياسي ــ الاجتماعي لفريضة الحج بالبعد النفسي ــ العـــرفاني؛ ليشـــهد الحجيـــج الآتون من كل فج عميق منافع على أصعدة متعددة، وساحات متنوعة، وميادين شتى.

إن هـــذا الالـــتحام الـــرائع بـــين أبعاد الحج وآفاقه لا يتحقق إلا بوعينا لأبعاد (الطاغوت) ومصاديقه، التي تمتد من ميدان النفس إلى ميادين القتال والجهاد والنضال.

ومـــن هنا ندرك مقولة الإمام ومدى دلالاتها العميقة: ((إن البعد (السياسي ــ الاجتماعي) للحج لا يتحقق إلا بتحقق بعده (المعنوي ــ الالهي))).

ولهـــذا يدعـــو حجاج بيت الله الحرام قائلاً: ((لتكن تلبياتكم تلبية لدعوة الله، وليكـــن إحـــرامكم من أجل الوصول إلى ساحة الحضور الإلهي. وأنتم تلبون ارفضوا الشـــرك بجميـــع مراتبه، وهاجروا من ذواتكم التي هي مصدر الشرك الأكبر إلى الله عزوجل)).

١- نقلاً عن: مختارات من أقوال الإمام ١: ١٠٩ـــ ١١٤ تفسير آية (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) إبراهيم: ٥.

ويتمنى للحجاج المهاجرين الوصول إلى ((الوفاة التي تعقب الهجرة، لينالوا ما وقع على الله من أجر))[1].

وهذه إشارة واضحة إلى آية الهجرة: (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله)[2].

وآيـــة الهجرة هذه طالما ركز عليها الإمام في خطاباته ورسائله وكتبه إلى درجة تكـــاد تكون في المقام الثاني بعد آية القيام[3]، ذلك لأنه يؤمن إيماناً عميقاً بأن وصول الســـالك إلى مرحلة الفناء التام، والمحو المطلق، ثم الصحو بعد المحو، هو الذي يجعله ذا إرادة نافذة للحق تعالى، حينما يزول غبار الكثرة، وتتكسر أصنام كعبة القلب، وما لم تتكسر تلك الأصنام لا يمكن للإنسان أن يسعى في تكسير الأصنام الاخرى الحجرية أو البشرية المتمثلة بالطاغوت السياسي ـــ الاجتماعي[4].

مـــن هـــذا المنطـــلق يؤكد الإمام على حقيقة بعثة الأنبياء و المرسلين، والمقصد الأساس وراء إنزال الكتب السماوية، قائلاً: ((لقد بعث الأنبياء كافة، وأنزلت الكتب السماوية كافة، من أجل إخراج الإنسان من معبد الأصنام هذا ـــ (الأنانية التي هي ام الأوثـــان) ـــ وتحطـــيمها، وتحويله إلى عابد لله)، وعندما يخرج الإنسان من ظلمات الأنانية ((يصبح عاملاً لله، مقاتلاً في سبيل الله))[5].

مـــن هـــذا المنطلق ـــ أيضاً ـــ يخاطب الإمام حجاج بيت الله قائلاً: ((مادمتم مكبلين بأغلال ذاتياتكم وأهوائكم وأنانياتكم لا تستطيعون الجهاد في سبيل الله، ولا الدفـــاع عـــن حـــريم الله))[6]. ((ولو تحقق في الإنسان هذا الجانب العرفاني والمعنوي

١- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة /١٤٠٤هـ.

٢- النساء: ١٠٠.

٣- (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى..).

٤- راجع: الآداب المعنوية /٤٢٢.

٥- تفسير آية البسملة، للإمام الخميني / ٤٨، ١٠٠.

٦- خطاب الإمام: ٢/ ذي الحجة / ١٤٠٤هـ.

وحده، واقترنت التلبية ــ (لبيك اللهم لبيك) ــ صدقاً بنداء الله تعالى، فإن الإنسان سـيحقق الانتصار في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية، وحتى العسكرية. وإن مثل هذا الإنسان لا يفهم معنى الهزيمة والفشل))[1].

((بتلبيتكم قولوا (لا) لكل الأصنام. وأي صنم أكبر من الشيطان الأكبر أمريكا الطامعة؟!

أرفضوا كل الطواغيت الصغار والكبار.

اجعـلوا قلوبكم في الطواف حول بيت الله خالية من غير الله، فإن الطواف يرمز إلى عشق الله.

نـزهوا أنفسـكم مـن أن تخاف غير الله تعالى.تبرأوا ــ مع عشق الله ــ من الأصـنام الكـبيرة والصغيرة، ومن الطواغيت وأتباعهم.. وفي لمسكم للحجر الأسود بايعوا الله لأن تكونوا أعداءً لاعداء الله ورسوله والصالحين والأحرار.. اقتلعوا جذور الخـوف مـن قلوبكم فإن كيد أعداء الله ــ وعلى رأسهم الشيطان الأكبر ــ كان ضـعيفاً، مهمـا تفوقوا في وسائل القتل والدمار والإجرام.. وفي السعي بين (الصفا) و(المـروة) اسـعوا بصـدق وإخلاص ــ لتجدوا المحبوب، فإن وجدتموه يتقطع كل انشداد إلى الدنيا، وينقلع كل شك وتردد، وتنفصم كل القيود، وعندها تتفتح براعم الحـرية وتتحطم الأغلال التي كبل بها الطواغيت عباد الله، وأسروهم واستعبدوهم. واتجهوا إلى (المشعر الحرام) و(عرفات) بشعورٍ وعرفان، وزيدوا دوماً من ثقتكم بوعد الله وحكومـة المستضعفين، وتفكروا بآيات الله في هدوء وسكون.. وفكروا في إنقاذ المحرومين والمستضعفين من مخالب المستكبرين.

اذهـبوا إلى (منى) لتنالوا فيها الأماني الحقة المتمثلة في تقديم أعز ما عندكم قرباناً على طريق المحبوب..))[1]. ((برجمكم (العقبات الثلاثة) عاهدوا الله على رجم وطرح شياطين الإنس والقوى المستكبرة من بلدان العالم الإسلامي))[2].

١- خطاب الإمام: ٢٨/ ذي القعدة / ١٤٠٥هـ.

وهكــذا تلتحم الثورة والعرفان، وتتعانق السياسة والعبادة، ويتزامن السعي بين الصــفا والمــروة بالسعي نحو تحقيق الأماني الحرة، ورجم العقبات برجم الطاغوت، وطــواف الكعبة بالقيام والنهضة والثورة. وهكذا ــ أيضاً ــ يتحول عيد الأضحى المــبارك إلى عيــد التضحية والبذل والفداء والعطاء في سبيل الله، ومقارعة الظالمين والطاعــنين؛ لأنــه ((العيد الذي يذكر الواعي بالتضحية الإبراهيمية، ويقدم دروس الفــداء والجهاد في سبيل الله إلى أبناء آدم وأصفياء الله وأوليائه)) [٣].لقد علمنا إبراهيم ــ شــيخ الموحديــن ومحطم الأصنام ومؤسس الإيثار ــ كيف نعيّد ومتى، ((علمنا وعــلم الجميــع أن نقدم أعز ثمار حياتنا في طريق الله ثم نعيّد)) [٤]: (فلما أسلما وتله للجبين• وناديناه أن يا إبراهيم • قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين • إن هذا لهو البلاء المبين • وفديناه بذبحٍ عظيم • وتركنا عليه في الآخرين) [٥].

إلى هــنا تنــتهي جولتنا في استكشاف أبعاد ومنهج التفسير عند الإمام الخميني (رضــوان الله تعــالى عــليه)، وقد تحرينا الإيجاز، مراعاة لطبيعة الكتاب، على أمل اســتعراض ذلــك المــنهج التفسيري القيم بشكل مفصل ومسهب، بعون الله المنعم الوهاب.

والســلام على روح الله يوم ولد، ويوم ذهب إلى ربه راضياً مرضياً، ويوم يبعث حياً.

١- خطاب الإمام: ١/ ذي الحجة / ١٤٠٦هـــ.

٢- خطاب الإمام: ٧/ ذي الحجة /١٣٩٩هـــ.

٣- خطاب الإمام: ١٠/ ذي الحجة / ١٤٠٣هـــ.

٤- ن . م.

٥- الصافات : ١٠٣ــ ١٠٨.

المحتويات

الفصل الرابع

الإمام والمنهج التفسيري

الفصل الخامس

القرآن بين منطقي ..الثورة والدولة

الفصل السادس

آيات الحج ومناسكه بين التفسير الدلالي والتفسير التطبيقي

عبد السلام زين العابدين

- من مواليد السماوة في العراق سنة ١٩٥٨م.
- بكلوريوس هندسة مدنيّة.
- انخرط في الحوزة العلمية منذ سنة ١٩٨٦م.
- استاذ تفسير وعلوم قرآن في الحوزة العلمية.

آثاره:

١ـ مراجعات في عصمة الانبياء من منظور قرآني.

٢ـ منهج الامام الخميني في التفسير.

كما نشرت له مجموعة أبحاث في الدوريات العربية، منها:

١ـ المرجع الشهيد الصدر: من فقه النص إلى فقه النظرية.

٢ـ ظاهرة النسخ : الشروط ـ الأهداف ـ الدروس.

٣ـ المكي والمدني : الضوابط والمعطيات.

٤ـ القرآن المهجور: المظاهر والأسباب.

٥ـ ملاحظات في التدبر القرآني.

٦ـ أخلاقية المطففين.

٧ـ المرأة القرآنية.

٨ـ قصة آية.

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبد الجبار الرفاعي

❑ اشراقات الفلسفة السياسية	كامل الهاشمي
❑ الاجتهاد والتجديد	ابراهيم العبادي
❑ منهج الامام في التفسير	عبد السلام زين العابدين
❑ علم الكلام الجديد	محمد مجتهد شبستري
❑ المدرسة التفكيكية	محمد رضا حكيمي
❑ الامام السجاد	حسين باقر
❑ اشكالية الاسلام والحداثة	عادل عبدالمهدي
❑ اسلامية المعرفة	اسماعيل الفاروقي
❑ اصلاح الفكر الاسلامي	طه جابر العلواني
❑ جداليات الفكر الاسلامي	ابراهيم العبادي
❑ فقه التحيز	عبد الوهاب المسيري
❑ اسلمة الذات	كامل الهاشمي
❑ نظرية العلم في القرآن	غالب حسن
❑ القسط والعدل	لمحمد رضا حكيمي واخويه
❑ مقدمة في اسلامية المعرفة	طه جابر العلواني
❑ تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية	عبد الجبار الرفاعي
❑ قضايا التجديد	حسن الترابي
❑ نزعة التغريب	جلال آل احمد
❑ الدستور والبرلمان	جعفرعبد الرزاق
❑ الفكر الاسلامي: تطوراته و مساراته	زكي الميلاد
❑ علم الاستغراب	حسن حنفي
❑ الاجتهاد التحقيقي	محمد رضا حكيمي
❑ المستنيرون: خدمات وخيانات	جلال آل أحمد
❑ أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم	غالب حسن
❑ اشكاليات التجديد	ماجد الغرباوي
❑ مقاصد الشريعة	طه جابر العلواني
❑ الثقافة الاسلامية بين التغريب والتأصيل	شلتاغ عبود